ثقافات الشعوب

@ketab_n
15.11.2014

الصخرة الناطقة

الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي

جمع: جايمس موني
ترجمة: فادي طفيلي

الصخرة الناطقة

الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي

جمع:
جايمس موني

ترجمة:
فادي طفيلي

Twitter: @ketab_n

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

الصخرة الناطقة

الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

الصخرة الناطقة: الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

E99. C5 M7764 2009
Mooney, James, 1861-1921.
[Myths of the Cherokee]
الصخرة الناطقة: الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي/ جمع جايمس موني؛ ترجمة فادي طفيلي. –
ط.1.– أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
240ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 9- 510-01-9948-978
ترجمة كتاب: Myths of the Cherokee
1 – القصص الشعبية الأمريكية 2 – الحكايات الأمريكية. أ– طفيلي، فادي. ب– العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+

www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	9
مدونات تاريخية تليها معرفة النبات	13
الاتصال الأول بالبيض	14
حروب الإيروكوا	17
هايادِيوني، السينيكا	28
هنديا الموهوك	31
هروب صبيا السينيكا	36
المُنْجِدون الخفيون	39
فرار هاتسينوندون من الشيروكي	45
حامل القُنب	51
السينيكا المصلحون ذات البين	54
أصل رقصة اليونتونْويساس	57
مغامرات غا نا بين الشيروكي	62
حروب الشاوانو	70
الغارة على تيكوالي تسي	79
اجتياح الشاوانو الأخير	81
محاربو التشيلهُوْوِي الزائفون	84
بلدة كُوْوِي	90
القبائل الشرقية	92
القبائل الجنوبية والغربية	102
العمالقة الغربيون	128

Twitter: @ketab_n

الشيروكي الضائعون	129
مجزرة الـ «آني – كوتا ني»	132
دواء الحرب السحري	136
وقائع بطولات شخصية	138
الروابي والنار الدائمة: الأشياء المقدسة القديمة	141
ربة البيت الجاهلة	146
الرجل في جذْل الشجرة	147
الصيادان الكَسولان	148
الشيخان	152
ريش النجم	154
أغنية الدبة الأم	157
أغنية طفل، لإسعاد الصغار	159
عندما يولد الأطفال: النِمْنِمة والجُدْجُد	160
محاكي الغراب	162
ينبوع هيربيرت	168
أساطير محلية من نورث كارولينا	171
أساطير محلية من ساوث كارولينا	193
أساطير محلية من تنيسي	196
أساطير محلية من جورجيا	204
معرفة النبات	219

Twitter: @ketab_n

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها – مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة – تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

Twitter: @ketab_n

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه – وإن بلغة أخرى – جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

Twitter: @ketab_n

تقديم

الشيروكي هم إحدى أشهر قبائل سكان أمريكا الشمالية الأصليين، ممن عرفوا من قبل المستعمرين البيض باسم «الهنود الحمر» وذلك استناداً إلى ظن كريستوفر كولومبوس الخاطئ بأنه وصل إلى الهند حين وصل إلى بلادهم في أكتوبر عام 1492م.

منذ أزمنة قديمة سبقت وصول كولومبوس وما تلا وصوله من استعمار أوروبي، وقبل ترحيل الشيروكي من الجنوب إلى محميات في غرب نهر الميسيسيبي، عملاً بـ «قرار نقل الهنود» الذي وقعه الرئيس الأمريكي السابع أندرو جاكسون عام 1830، فقد سكن الشيروكي المناطق التي أخذت تمثل منذ القرن الثامن عشر جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وانتشرت بلداتهم وقراهم في بيئة جغرافية متنوعة شملت ولايات ألاباما وجورجيا وكنتاكي ونورث كارولينا وساوث كارولينا وتنيسي وفيرجينيا.

Twitter: @ketab_n

وتمثل المناطق والولايات الجنوبية الأمريكية تلك، المسرح الطبيعي لقصص الشيروكي التي بين أيدينا، فَتَرِد أسماؤها كلها في كثير من القصص، كما ترد أسماء أنهارها وجبالها وسهولها وقراها وحيواناتها وطيورها ونباتاتها الكثيرة المميزة، هذا إضافة إلى أسماء العديد من القبائل الأخرى التي جاورت الشيروكي في تلك البلاد وتفاعلت معهم سلماً أو حرباً. كما ترد في القصص عبارات وأسماء كثيرة دُونت في لغة الشيروكي الخاصة التي تنتمي إلى عائلة لغة الإيروكوا، القبيلة الهندية الكبيرة الأخرى. وقد نقلنا في هذا النص المترجم تلك العبارات والأسماء حسب ما تُلفظ بالأحرف العربية استناداً إلى لفظها بالأحرف اللاتينية. هذا وارتأينا ترجمة عبارة «مستعمرة» (settlement)، التي ترد في القصص لتشير إلى بلدات الشيروكي والقبائل الأخرى، إلى «قرية»، وذلك لتمييز قرى وبلدات الهنود عن «المستعمرات» ومفهومها الذي جاء مع المستعمرين الأوروبيين البيض وارتبط بهم.

لم يكن الشيروكي يسمون حكاياتهم هذه أساطير. إذ كانت مروياتهم تُعد بمثابة تعاليم مقدسة تفوه بها أجدادهم وكبار حكمائهم للإشارة إلى حقائق الكون والوجود الخالدة. وهي،

Twitter: @ketab_n

حسب ما اعتقدوا، تخصهم وحدهم، فلم يكن جائزاً قيام آخرين، قبائل أو شعوباً، بسردها وإخبارها.

حسب الإحصاء الرسمي لتعداد السكان في الولايات المتحدة الصادر قبل سنوات، تُعد قبيلة الشيروكي أكبر قبيلة هندية بين القبائل الخمسمئة والاثنين وستين المعترف بها فدرالياً في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم. وكانت القبيلة المذكورة قد اعتبرت منذ القرن التاسع عشر، من قبل المستعمرين البيض، إحدى «القبائل المتحضرة الخمس» نظراً لكثرة تفاعلها معهم في الثقافة والزواج وأساليب الحياة. الأمر قد يفسر ربما اهتمام «مكتب الدراسات العرقية الأمريكي» في واشنطن بقبيلة الشيروكي في أواخر القرن التاسع عشر.

جايمس موني، مُحقق هذه القصص وجامعها، المولود في ريتشموند بولاية إنديانا عام 1861، هو أحد أفراد الجيل الأول لباحثي الأنثروبولوجيا المحترفين في الولايات المتحدة، إذ كان قد بدأ عمله كباحث في مكتب الدراسات العرقية الأمريكي في عام 1885 حين انتقل من ريتشموند إلى العاصمة الأمريكية، واشنطن. وقد تمحور اهتمام موني الأكبر في عمله البحثي، على نحو خاص، حول تاريخ شعب الشيروكي وثقافته، فقضى

Twitter: @ketab_n

سنوات عديدة من حياته مختبراً العيش في أوساط القبيلة بولاية نورث كرولينا، متعلماً لغتها ومستقصياً عن عاداتها وتقاليدها ومسجلاً قصصها التي سمعها من أفراد قبليين مسنين ومن أشخاص تربطهم بالشيروكي صلات قربى، كما من رواة آخرين كانوا قد سبقوه إلى تسجيل القصص ونقلها وتأويلها. وقد أشار موني، في سياق الحكايات التي جمعها وفي حواشيها إلى الكثير والوافي من تلك المصادر الأولى والثانية التي نقل عنها، مما يدعم مكانته وسمعته عند معظم المهتمين والباحثين بثقافة السكان الأصليين في أمريكا، كمحقق «المدونات الأكثر دقة في ثقافة الشيروكي وتاريخهم».

فادي طفيلي

Twitter: @ketab_n

مدونات تاريخية تليها معرفة النبات

Twitter: @ketab_n

الاتصال الأول بالبيض

ثمة القليل من القصص المتعلقة باتصال الشيروكي الأول بالبيض والزنوج. هذه القصص تبدو حديثة العهد وقيمتها الأسطورية واهية، لكنها تلقي بعض الضوء على نظرة الهنود الحمر إلى الأعراق الأخرى.

تتحدّث واحدة من الحكايات عن كيفية قدوم البيض الأوائل من الشرق ومحاولتهم إقامة علاقة ودية مع الهنود الحمر، إلا أن الآخرين أحجموا عن التعامل معهم لفترة طويلة. في النهاية قام البيض بترك إبريق من الويسكي ومغرفة قرب نبع يتردد عليه الهنود باستمرار. فجاء الهنود إلى هناك وتذوقوا الخمر، الذي ما كانوا قد خبروه من قبل، وقد أحبوه كثيراً لدرجة أنهم انتهوا جميعاً في حالة من السكر. وفيما كانوا ينعمون بذلك المزاج السعيد جاء بعض البيض، فقام الهنود حينذاك بمصافحتهم وغدا الطرفان أصدقاء على هذا النحو، منذ ذلك الحين. ومن المحتمل أن تكون هذه القصة تمثل تأويل الشيروكي لقصة نزول البيض

Twitter: @ketab_n

الأول من نهر هادسون إلى جزيرة مانهاتن:

إبان الخلق أُعطي الرجل الأبيض أولونسو تي، وأُعطي الهندي قطعة من فضة. لكن الرجل الأبيض فرّط بذلك الحجر ورماه، وكذا فعل الهنود بالفضة. وخلال تجواله فيما بعد عثر الرجل الأبيض على قطعة الفضة ووضعها في جيبه، وقد حاز عليها منذ ذلك الحين. على نحو مماثل، عثر الهندي بدوره على الـ أولونسو تي في المكان الذي رماها الرجل الأبيض فيه. فقام بلمها، وغدت طلسمه منذ ذلك الحين تماماً كما المال هو قوة الرجل الأبيض الطلسمية.

وهناك قصة أخرى شديدة العمومية وهي على الأرجح، أقدم من القصص الأخرى التي من صنفها:

حين كان سيكوويا، مخترع أبجدية الشيروكي، يحاول في عام 1822 نشر أبجديته تلك في أوساط شعبه، فإن بعضهم اعترض عليها معتبراً أن لا مصلحة للهنود في القراءة، قائلاً إنه حين خُلق الهندي والرجل الأبيض، أُعطي الهندي، كونه البكر، كتاباً، فيما أُعطي الرجل الأبيض قوساً وسهاماً. أُرشد كل منهما إلى العناية بهديته واستخدامها على النحو الأنسب، غير أن الهندي كان شديد الإهمال لكتابه الذي سرعان ما قام الرجل الأبيض بسرقته

Twitter: @ketab_n

منه، تاركاً في مكانه القوس، بحيث غدت الكتب والقراءة الآن جزءاً من حق الرجل الأبيض، فيما ينبغي على الهندي الاكتفاء بالصيد كمورد رزق له.

القصة التالية أيضاً، على الرغم من وضوح نسبها الحديث العهد، فقد سُمِعت من رواة عديدين:

صنع الزنجي أول قاطرة لعبة ووضعها على سكة خشبية وأخذ يستمتع بلهوه بها، إلى أن جاء رجل أبيض وشاهد حتى تعلم كيفية تحريكها، فقام حينذاك بقتل الزنجي وأخذ القاطرة لنفسه.

Twitter: @ketab_n

حروب الإيروكوا[1]

نشبت حروب طويلة بين الشيروكي وبين الإيروكوا، أنسبَائهم البعيدين في الشمال، حيث كانت ذكرى تلك الحروب بالنسبة للطرفين، والتي تكاد تمحي اليوم، تراثاً حياً قبل خمسين عاماً. قبيلة الـ (سينيكا)، إحدى قبائل الإيروكوا، تعرف الشيروكي باسم أويادا غي أونون، وهو الاسم الذي عنى تلقائياً «شعب الكهف». وهؤلاء بدورهم عرفوا الشيروكي، وتحديداً السينيكا، قبيلتهم الأكبر والأكثر عدوانية، باسم نونداوي غي، آني نونداوي غي، أو آني – سينيكا، حيث اشتق الاسمان الأولان من نونداوا غا، أو نونداوا – أونو، «شعب التلال العظيمة»، وهو الاسم الذي يطلقه السينيكا على أنفسهم.

بالاستناد إلى ملاحظات موثوقة دونت في أبحاث أكاديمية، يدّعي السينيكا أنه، وفي زمن ما، كان لديهم قرية أُخرجوا منها فيما بعد، وذلك في بلدة سينيكا، في ساوث

(1) أو الأمم الخمس، وهي مجموعة من أمم الأمريكيين القدماء الأولى في منطقة البحيرات العظمى، تتألف من خمس قبائل: الموهوك، أونايدا، أنونداجا، كيجا، وسينيكا. وكانت هذه القبائل قد اتحدت في القرن الثاني عشر وأسست كونفدرالية. في عام 1720 انضمت إليهم قبيلة سادسة هي قبيلة توسكارورا (م).

Twitter: @ketab_n

كارولينا، المعروفة تاريخياً في أنها واحدة من البلدات الرئيسة في بلاد الشيروكي السفلى.

وقد وجدت «عصبة الإيروكوا»[1] على الأرجح قرابة العقد الوسيط من القرن السادس عشر. قبل العام 1680 كانوا قد غزوا وأبادوا جميع القبائل التي سكنت حدودهم، كما شهروا السلاح في وجه قبائل إلينوي وكاتاوبا وشيروكي، الأكثر بُعداً.

وبحسب رواية الإيروكوا التقليدية، فقد كان الشيروكي هم المعتدون، إذ هاجموا وسلبوا حفل صيد كان السينيكا يقيمونه بمكان ما في الغرب، فيما يُقَدم الشيروكي قصة ثانية في كونهم نقضوا معاهدة للسلام عبر قتلهم ممثلي الإيروكوا في المحادثات.

أياً كان السبب، فقد خاضت جميعُ قبائل العصبة الحربَ.

كانت تتطلب الرحلة من بلاد الإيروكوا إلى تخوم بلاد الشيروكي، من مجموعة محاربة تسافر مسرعة، مدة خمسة أيام. لأن المسافة كانت بعيدة جداً بالنسبة للحملات الكبيرة، فقد تألفت الحرب بالدرجة الأولى من سلسلة مآثر فردية، إذ غالباً ما كان يقوم فرد من الشيروكي بالسفر مئات الأميال ليقوم بهجوم

(1) أو «جامعة الإيروكوا»، وهي الاتحاد الكونفيدرالي بين أممهم الست (م).

Twitter: @ketab_n

كان يستدعي بالتأكيد رداً حازماً من قبل المحاربين الشماليين، وقد بات الهدف الأعظم لكل فتى من الإيروكوا، ما إن يبلغ سناً تسمح له بخوض الحرب، الذهاب لمواجهة الشيروكي. وقع الأسرى في أيدي الطرفين بأعداد متعادلة، كما كان الطرفان يسعيان بالتساوي إلى تحقيق مكتسبات دائمة، حتى عقدت في النهاية تسوية عُين بموجبها نهر تنيسي حدوداً بين مزاعم الطرفين المتنافسة، إذ اعتبر كل ما يقع إلى جنوب مجرى النهر المذكور ملكاً للشيروكي الذين يطالبون به، ويعترف الإيروكوا بذلك، ليغدو النهر حدوداً لفتوحاتهم في ذلك الاتجاه. وقد اعترف بالحدود الهندية تلك بها من قبل الحكومة البريطانية وهو أمر استمر حتى زمن الثورة الأمريكية.

يشير مورغان[1] إلى أنه عقدت في إحدى المرات اتفاقية دقيقة بين القبيلتين، حيث اعتبر ذلك النهر أيضاً حداً لمطاردة كل طرف للآخر. إن استطاعت مجموعة محاربة من الشيروكي وهي في طريق عودتها عبور تنيسي مرة أخرى قبل أن تباغتها مطاردة الإيروكوا، فإن تلك المجموعة تلك سوف تنجو من الهجوم كأنها محصنة وراء خط دفاعي. قد يبقى احتمال قيام المطاردين

(1) هنري لويس مورغان (1818–1881) عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي الذي كانت له دراسات حول سكان أمريكا الأصليين (م).

Twitter: @ketab_n

بغزو أراضي العدو قائماً، إن اختاروا ذلك، إلا أنهم يمرون بقرب معسكر الشيروكي المنسحبين ولا يقومون بمهاجمتهم. وكان اتفاق مماثل قد عقد مرة بين قبيلتي السينيكا والإيري.

ويكمن أصل رقصة الجاموس التي يؤديها الإيروكوا في حملة جُردت ضد الشيروكي، بحسب ما يقال. إذ حين بلغ المحاربون وهم في طريقهم إلى الجنوب موطن الملح في كنتاكي، فقد وجدوا هناك قطيعاً من الجواميس، وسمعوه، لأول مرة، «يشدو بأغنياته المفضلة» التي هي خوار وشخير. من الخوار وحركات الحيوانات تلك استُمدت نقلات الرقصة وموسيقاها.

بحسب الرواية التقليدية للشيروكي، كما ذكرها الزعيم ستاند واتي[1]، فإن الحرب بلغت أخيراً نهايتها على يد الإيروكوا الذين أرسلوا مبعوثين إلى الشيروكي لاقتراح قيام تحالف عام بين قبائل الجنوب والغرب. وافق الشيروكي على ذلك الاقتراح، وقاموا بدورهم بإرسال دعوات إلى القبائل الأخرى، التي انخرطت جميعها في السلام ما عدا الأوساج، القبيلة التي قالوا إثر ذلك إنه ينبغي تركها كثمرة برية في الحقول لينقرها كل طائر، وهكذا فقد

(1) اسمه في لغة الشيروكي ستاندهوب أوواتي، ديغاتاغا (ابق ثابتاً). هو زعيم أمة الشيروكي بين العامين 1862 - 1866. خلال الحرب الأهلية الأمريكية تحالف مع قوات الولايات الكونفدرالية الجنوبية، وقاد كتيبة من الشيروكي قاتلت معهم (م).

Twitter: @ketab_n

ظلت الأوساج إلى الأبد قبيلة ضارية لا أصدقاء لها ولا حلفاء. وقد تكون معاهدة السلام هذه هي نفسها التي أتى ذكرها في قصة «صانعو السلام من السينيكا». وهناك معاهدة سلام أخيرة ورسمية بين القبيلتين تم التوصل إليها من خلال جهود قام بها الوسيط البريطاني، سير ويليام جونسون، في عام 1768.

في عام 1847 كان ما زال يعيش بين السينيكا أحفاد الشيروكي الذين أُسِروا في تلك الحروب. وفي عام 1794 انتبه السينيكا للكولونيل بيكيرينغ، الزعيم الشيروكي الأصل، المأسور حين كان فتى والمتبنى من قبل السينيكا الذين قاموا بتعيينه زعيماً فيما بعد. وقد كان الأخير على الأرجح هو نفسه الرجل الذي أخبروا سكولكرافت[1] عنه بعد مضي خمسين عاماً. وكان دم الشيروكي نقياً في عروقه، غير أنه كان قد وقع في الأسر بسن مبكرة جداً فلم يبق بذاكرته شيء عن ذلك. بعدها بسنوات، حين بلغ سن الرجولة وصار زعيماً في القبيلة، عَلِم عن أصوله الغريبة وتملكه في الحال توق شديد للعودة إلى الجنوب كي يجد شعبه ويحيا ويموت بينهم. ارتحل الرجل إلى بلاد الشيروكي، لكنه حين وصل إلى هناك وجد، ولخيبة أمله الكبرى، أن القبيلة

(1) هنري روو سكولكرافت (1793- 1864) هو جغرافي وجيولوجي وعالم أناسة أمريكي اشتهر بدراساته المبكرة حول ثقافات الهنود الحمر، وباكتشافه عام 1832 لمنابع نهر الميسيسيبي (م).

Twitter: @ketab_n

نسيت تماماً قصة أسره، وأن أقاربه، أو من بقي منهم، لم يتعرفوا عليه. وحين لم يتمكن من العثور على أحد من أنسبائه اكتفى بزيارة قصيرة وعاد أدراجه إلى السينيكا.

من جايمس وافورد، الذي عاش في الأراضي الهندية، حصل المؤلف[1] على وصف مفصل لبعثة الإيروكوا للسلام التي تم الاتصال بها من قبل ستاند واتي، كما لحزام الوَمْبَام[2] الذي كان معها. وقد استقى وافورد معلوماته المتعلقة بالمفاوضات في إيتشوتا، مباشرة من شاهدي عيان، وهو سيكيويا، مخترع الأبجدية، وغاتون وا لي، «العصيدة[3] الصلبة»، هذا الأخير الذي قام فيما بعد بتفسير معنى الحزام في المجلس الكبير قرب تاهليكيوا بعد سبعين سنة. في وقت انعقاد مؤتمر إيتشوتا كان سيكيويا فتى يحيا مع والدته في بلدة تاسكيجي الواقعة على بعد أميال عدة، أما غاتون وا لي فكان قد صار شاباً.

وتبدو معاهدة السلام بين الشيروكي والإيروكوا، التي وقعت في جونسون هول في نيويورك عام 1768، من خلال المدونة بأنها صنيعة الشيروكي، الذين أرسلوا لهذا الغرض

(1) سكولكرافت، على الأرجح (م).
(2) عقد من أصداف يتزين به هنود أميركا الشمالية أو يتعاملون به بوصفه عملة ويتخذ قيمة رمزية خاصة في المناسبات المهمة كالحرب أو السلم (م).
(3) دقيق الذرة المغلي في الماء (م).

Twitter: @ketab_n

وفداً من الزعماء يترأسهم آغانستا تا، «سجق المرموط[1]» الذي من إيتشوتا، قائدهم العظيم في حرب 1760–1761 ضد البريطانيين. بعد أن عُقدت المعاهدة قام وفد الشيروكي بدعوة عدد من زعماء الإيروكوا للمجيء معهم في زيارة إلى ديارهم، لكن الأخيرون رفضوا بذريعة أن ذلك ليس آمناً بعد، وأن عدداً من محاربيهم في الحقيقة كانوا، في خلال الوقت ذاك، قد خرجوا لقتال الشيروكي، ولم يكونوا مدركين لمفاوضات السلام. فيرجح، إذ ذاك، ألا يكون وفد الإيروكوا قد وصل إلى إيتشوتا إلا بعد فترة مديدة، فترة تقدر بثلاثة أعوام ربما، وذلك بعد أن اختتمت الاجتماعات التمهيدية الرسمية في الشمال.

بالاستناد إلى رواية سيكيويا، التي قدمها لوافورد، فقد كانت هناك حرب طويلة بين الشيروكي والهنود الشماليين، هؤلاء الذين لم يتمكنوا يوماً من غزو الشيروكي أو من كسر معنوياتهم، إلى أن تعب الإيروكوا من القتال في النهاية وأرسلوا وفداً لتحقيق السلام. انطلق الرسل نحو الجنوب ومعهم أحزمة الوامبام ورموز السلام، إلا أنهم أضاعوا طريقهم بعد اجتيازهم نهر تنيسي، ربما بسبب ضرورة تجنب الطريق الرئيسة، وبدل أن يصلوا إلى إيتساتي أو إيتشوتا، بلدة السلام القديمة وعاصمة أمة الشيروكي – تقع عند نهر تنيسي الصغير تحت

(1) حيوان من القوارض، يلقب بفأر الجبل (م).

Twitter: @ketab_n

جدول سيتيكو، في مقاطعة مونرو الراهنة، في تنيسي – فقد وجدوا أنفسهم في ضواحي تاليكوا أو تيليكو، عند نهر تيليكو، على بعد عشرة أميال أو خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب.

بعد أن أخفوا أنفسهم في الحي، قاموا بإرسال واحد منهم إلى البلدة ليعلن مجيئهم. وقد تصادف أن الزعيم وعائلته كانوا يعملون في حقلهم المزروع بالذرة، وكانت ابنة الزعيم، لسبب ما، قد غادرت لتوها إلى المنزل لتجد الإيروكوا وقد دخلوا وطلبوا منها شيئاً يأكلونه. وإذ رأت الأبنة أن ثمة غريباً في الدار، قامت بتقديم الطعام له تماشياً مع عادات الضيافة القديمة. وحين شرع الغريب بالأكل جاء والدها، الزعيم، ليرى ما كان يؤخرها، وقد فوجئ برؤية واحد من أعداء قبيلته المتوارثين في منزله. في تلك الأثناء كان خبر وجود واحد من الإيروكوا في منزل الزعيم قد انتشر، فتوقف رجال البلدة عن العمل وامتشقوا أسلحتهم ليقتلوه، لكن الزعيم علم بقدومهم وقد حال وقوفه عند مدخل منزله دون دخولهم، وقال لهم: «هذا الرجل جاء إلى هنا في مهمة سلام، وعليكم أن تقتلوني أولاً قبل قتله». في النهاية سمعوا لما قاله الزعيم وأتاحوا للرسول أن يخرج ويُحضر مرافقيه إلى منزل الزعيم، حيث كان الجميع يجرون التحضيرات.

Twitter: @ketab_n

بعد أن استراحوا من رحلتهم الطويلة قام زعيم تا ليكوا ورافقهم بنفسه إلى إيتسا تي، العاصمة، حيث عاش الزعيم الأكبر آغانستا تا، والذي كان الحاكم المدني للأمة في ذلك الوقت. تداعى زعماء مختلف البلدات وعقدوا مجلساً تلا فيه الناطق باسم وفد الإيروكوا رسالته وأبرز أحزمة الوامبام الصدفية والغلايين التي أحضروها معهم للتأكيد على مهمتهم وحملوها طوال الطريق في حقائب على ظهورهم.

قال الرجل إن شعبه وعلى مدى ثلاثة أعوام سعى لتحقيق السلام. في بلادهم كان ثمة نبع مياه قائمة عكرة، وقد قاموا بتغطيته طوال عام كامل ثم نظروا في مياهه، غير أنهم وجدوها ما زالت عكرة. فأعادوا تغطية النبع، لكنهم حين نظروا إلى المياه في نهاية عام آخر وجدوها لا تزال قائمة ومضطربة. غطوا النبع مدة عام آخر، وحين نظروا في المياه هذه المرة وجدوها قد صفت وتلألأت. حينها علموا أنه آن الأوان، فغادروا ديارهم حاملين أحزمة الوامبام لعقد السلام مع أعدائهم.

قبل الشيروكي الرسالة الودية تلك، وقد قدمت لهم الأحزمة وباقي الأغراض الرمزية التي أحضرت، كي يحتفظوا بها. أحزمة أخرى في المقابل قدمت للإيروكوا على الأرجح، وبعد وليمة

Twitter: @ketab_n

وحلقة رقص معتادة عاد الرسل إلى شعبهم في الشمال وبلغت الحرب الطويلة ختامها.

طوال ما يقارب قرناً من الزمن احتفظ الشيروكي بالمحاضر الرمزية لمعاهدة السلام مع الإيروكوا، وقد انتقلت معهم إلى الأراضي الغربية حين أُخرجت القبيلة أخيراً من موطنها القديم في عام 1838. وكانت تلك المحاضر في حينها في حفظ جون روس، الزعيم الرئيس في زمن النقل[1]، وقد أُبرزت على نحو مهيب خلال مجلس قبلي جامع كبير عُقد بالقرب من تاهليكوا، في الأراضي الهندية في حزيران عام 1843، حيث شرحها رئيس المجلس، الشيروكي غاتون وا لي، «العصيدة الصلبة»، والذي كان قد شهد تقديمها لزعماء قبيلته في إيتسا تي القديمة قبل سبعين عام خلت. وكان وافورد حاضراً أيضاً في هذه المناسبة ويشرحها على الشكل التالي:

رافعاً الأحزمة فوق ذراعه فيما كان يتكلم، تحدث «العصيدة الصلبة» عن المعاهدة الأصلية المعقودة مع الشيروكي وشرح معنى كل واحد من تلك الأحزمة. وبحسب ذكريات وافورد الأكثر دقة، فقد كان هناك حزام كبير من بين تلك الأحزمة اتسع للأحزمة

(1) نقل الهنود الحمر إلى محميات في الغرب (م).

Twitter: @ketab_n

الباقية الأصغر. لم تبد خرزاته من الصدف بل من البورسلان. وكان ثمة أيضاً غلايين حمراء للمحاربين، وغلايين بيضاء مائلة للرمادي للزعماء الذين تصدروا صنع السلام، وبعض المراوح أو غيرها من الحلي المصنوعة من الريش. كان هناك العديد من الغلايين الحمراء، التي تحاكي غلايين السيوكس[1]، لكن واحداً فقط، أو اثنين من غلايين السلام البيضاء تلك، والتي قد تكون مطلية فحسب، كانا أكبر حجماً من الغلايين الأخرى.

مررت تلك الغلايين للمتحلقين في دائرة بالمجلس، حيث تسنى لكل مندوب أن يدخن مجة منها. الأغراض بمجموعها شكلت صرة كبيرة، تمت حمايتها حينذاك من قبل حارس من الشيروكي. ويعتقد أنها دمرت في حرب التمرد[2]، وذلك حين أُحرق منزل جون روس، الواقع على بعد أميال قليلة جنوب تاهليكوا، على يد جنود الكونفدرالية بقيادة الجنرال ستاند واتي.

(1) الهنود السيوكس (م).
(2) الحرب الأهلية الأمريكية 1861 –1865 (م).

Twitter: @ketab_n

هايادیوني، السينيكا

كان هايادیوني والداً للزعيم الأخير يونغ–كينغ. وكان محارباً من السينيكا، يتمتع بشجاعة عظيمة وبراعة وخفة حركة، حيث كرس سمعته في الإقدام والمهارة في مناسبات كثيرة. وفيما كان السينيكا ما زالوا يحيون عند نهر غينيس، صمم على القيام بغزوة بمفرده في بلاد الشيروكي. فكرة تميز نفسه في تلك المغامرة الجريئة دغدغت أحلامه، فاستعد لها بحسب ما تقتضيه أعراف المحاربين، إذ أن الأخيرين لا يثقلون أنفسهم بالحمولة. لم يأخذ معه شيئاً سوى سلاحه ووجبة دقيق الذرة المحمصة قليلاً. أما اللحم فاعتمد فيه على الصيد.

وصل هايادیوني وحيداً وبأمان إلى تخوم بلاد الشيروكي. انتظر حلول المساء قبل أن يدخل إلى ضواحي إحدى القرى. فوجد الناس مشغولين في الرقص. تحيّن فرصة، وحين خرج أحد الراقصين من الحلقة متوجهاً إلى الآجام أجهز عليه بفأسه. على هذا النحو قتل رجلين في تلك الليلة عند أطراف الغابات وذلك

Twitter: @ketab_n

من دون إثارة الذعر، فسلخ فروتي رأسيهما وانسحب. كان الوقت متأخراً حين بلغ كوخاً يقوم بعيداً عن الأكواخ الأخرى، في طريقه باتجاه داره. حين راقب الكوخ رأى شاباً يخرج منه، فأقدم على قتله كما قتل الآخرين وسلخ فروة رأسه. وحين نظر بحذر إلى داخل الكوخ وجد أنه خال، فغامر بالدخول عله يعثر فيه على بعض التبغ والمؤونة التي يحتاج إليها في طريق العودة.

خلال انشغاله في البحث داخل الكوخ سمع وقع أقدام عند الباب، فرمى في الحال بنفسه على السرير الذي كان الشاب قد نهض منه، وغطى وجهه متظاهراً بالنوم. وقع الأقدام ذاك كان لوالدة ضحيته الأخيرة. وقد قالت المرأة، التي افترضته ابنها الذي رأته لوقت قصير قبل ذهابه للاستلقاء هناك، «يا بني، إني ماضية إلى مكان ما، ولن أعود قبل الصباح». أجاب بإشارة مناسبة، وغادرت المرأة المسنة. أغفا من دون أن يعلم، ولم يدرك شيئاً حتى الصباح، حين كان صوت المرأة أول ما سمعه. كانت المرأة، الحريصة على ابنها، قرب الموقد في الصباح الباكر تُخرج من الرماد بعض قطع الهريس المشوي، وقد قالت له بعد أن أخرجتها إنها تركتها من أجله كي يأكلها، وغادرت. نهض من السرير على الفور وترك المكان، إلا أن أول الفجر كان قد أفشى

Twitter: @ketab_n

بغزوته، فتابع طريقه بحماسة. خفيف القدمين ومدفوعاً بما شرع به، استطاع الوصول إلى مكان قصي في الغابة والتخفي هناك، حيث توارى إلى أن حل الليل، ثم واصل طريقه نحو نهر غينيس وبلغه في الوقت المناسب، حاملاً معه فروات رؤوس الشيروكي الثلاث كتذكار لانتصاره وشجاعته»— سكولكرافت، ملاحظات على الإيروكوا، ص. 253، 1847.

Twitter: @ketab_n

هنديا الموهوك

«في عام 1747 جاء اثنان من هنود الموهوك ليهاجما بلدات الشيروكي السفلى، فكمنا هناك ببراعة طوال فترة كادت تشمل الربيع والصيف، قتلا خلالها ما فاق العشرين شخصاً عبر هجمات مختلفة، قبل أن يتمكن أحد من الجماعات الساخطة والمحزونة، من اكتشاف أمرهما. وتمتع الرجلان بمعرفة دقيقة في السبل الملائمة لبلوغ أهدافهما، وكانا بالغي الرشاقة وطويلي الأناة. وكانا - حين يقتلان شخصاً ويسلخان فروة رأسه - ينسلان إلى الجبال المجاورة ويقطعان سلسلة الجبال الصخرية في مسالك معاكسة، على ما تتيح الفرصة لهما، كي يستحيل على المطاردين تعقبهما. مرة، حين كانت تطاردهما مجموعة كبيرة من المقاتلين، ركضا حول تل مرتفع في أعلى الرافد الرئيسي الشرقي لنهر سافانا، وتمكنا من اعتراض سبيل الأخيرين في المجموعة كما تمكنا من قتلهم وسلخ فروات رؤوسهم، ثم انسلا من بينهم وبين كييوهي[1] منسحبين. ولما كانت تلك البلدة هي المكان

(1) أو كييوي، وهي بلدة قديمة من بلدات الشيروكي (م).

Twitter: @ketab_n

الذي ينتمي إليه أفراد المجموعة المذكورة، فقد سارع هؤلاء نحوها متراصين، باعتبارها مكان الأمان الملائم أمام هكذا عدو حاذق. على هذا النحو قام هذان الشجاعان المتوحشان، المفعمان بالحيوية، بإرباك أعدائهما وترويعهم وصولاً إلى فضاء الأقمار الأربعة وذلك من دون شعورهما بأي خطر، على الرغم من أنهما غالباً ما اضطرا إلى قتل وشيّ من كانا يعيشان بينهم ووسط أعدائهما المتيقظين. وبعد أن وفيا بالانتقام لروابطهما الدموية وأرضيا طموحاتهما الخاصة بعدد غير معتاد من فروات الرؤوس، اعتزما أسر أحدهم والعودة به إلى ديارهما كدليل على عدم قيامهما بقتل سوى عدو بلديهما. من أجل هذا، اقتربا كثيراً من كييوهي، وغديا على بعد نصف ميل في أسفل حصن الأمير جورج[1] الجديد. تقدما بالحذر المعتاد في هكذا أحوال، وقد زحف أحدهما إلى الأمام، تحت الغطاء الأمثل في المكان، لمسافة بلغت المئة ياردة، فيما انتقل الآخر من شجرة إلى أخرى، ممعناً النظر في كل جهة. وفي المساء، قام رجل عجوز ومحبوب في البلدة باكتشافهما من أعلى تل مجاور، وقد أدرك من قَصة شعرهما، ومن لبسهما الخفيف المخصص للركض،

(1) سمي هذا الحصن (1753– 1768) تيمناً بالأمير جورج، أمير ويلز (الذي سيصبح فيما بعد الملك جورج الثالث، ملك بريطانيا). وقد عد الحصن المذكور من المواقع العسكرية الرئيسية المتقدمة في ولاية كارولينا (م).

Twitter: @ketab_n

ومن وقفتيهما، أنهما من الأعداء. عاد الرجل إلى البلدة وطرق أولاً باب بيت أحد تجارنا وأسر له بالمسألة، وقد أمره بألا يذكر ذلك أمام أحد، خشية أن يخرج الناس لمواجهتهما قبل اكتشاف مسالكهما فيتهم هو بخداعهم. لكن، وبعكس ما يمارسه التجار عادة في أوساط البدائيين غير الصفوحين، فقد قام ذلك العضو الطائش في شركة تشوكتا[1] سفينكس بالتطفل، كما دائماً، على ما يتعدى محيطه المعتاد، فأرسل للرجال القادة يعلمهم بالأمر. ولأن الموهوك كانوا حلفاء ولا يُعرف عنهم أنهم ضايقوا أيا من التجار في الطرق والغابات، فقد كان ينبغي عليه التقيد بحيادية صارمة. بأمر من قادتهم، تداعى شبان البلدة وانطلقوا بهجماتهم العامة الصاخبة وبأسلوبهم المعتاد وذلك لمنع عدويهما من الاشتباه بخطرهم، فيما أُرسل عدائي البلدة إلى جيرانهم كي يخبروا الأخيرين بوجوب التزام الصمت ومساعدتهم في ضمان طريدتيهما وإبقائهما في حالة من الأمان. تقدموا كأشباح صامتة، متفقين على خطة عمليتهم، وعبروا فوق النهر عند مخاضة[2] التجارة القديمة المواجهة للحصن الجديد، الذي يمتد بين تلين مرتفعين بارزين، وأكملوا نزولاً عابرين فوق جدول عريض شكل في ضفة النهر شبه دائرة فسيحة، فيما بدت القرية

(1) أُمة تشوكتا، إحدى أمم الهنود الحمر أو قبائلهم (م).
(2) موضع من النهر يسهل خوضه (م).

Twitter: @ketab_n

مسترخية في هدوئها المعتاد. ثم اقتربوا من نطاق أكثر ضيقاً، وأخيراً اكتشفوا الرجلين الشجاعين، السيئي الحظ، ممددين إلى جانب بعضهما البعض تحت أكواز صنوبر فتية ساقطة على الأرض. أطلق الجمع صيحات الحرب، وقد وثب رجلا الموهوك ورددا الصيحة بشجاعة، لكن، ورغم وثبتهما المفاجئة من تحت مخبئهما الكثيف، فإن أسلحتهما بدت عديمة الجدوى. مع ذلك قاما بجهود يائسة كي يَقْتُلا أو يُقتلا، على ما تطلب الحال منهما. واحد من الشيروكي، وهو رجل بارز يجري في عروقه دم من بلدة إستاناري (أوستانا لي) الواقعة على بعد ميلين من ذلك المكان، كان في مستهل الهجوم وكاد أن يقتل بقَطْلَسه[1]، الذي انتُزع منه، على الرغم من أنه كان الأقوى في الأمة كلها. لكنهما غُلبا بتفوق الأعداد، أُسِرا وأُخضِعا لأشد أنواع التعذيب بالنار، وسط حشد هائل من الأعداء المهللين.

أحد تجار التشوكتا الحاليين ممن كانوا في المكان، أخبرني أنه حين قُيدا إلى الوتد لاحظ أصغرهما وجود تجارنا على تل قريب، فخاطبهم باللغة الإنجليزية وتوسل إليهم أن ينقذوا حياتهما. فقال له الأكبر على الفور، بلغته الأم، أن يكف عن ذلك.

(1) القَطْلَس: سيف قصير ثقيل مقوس كان يستخدمه البحارة (م).

Twitter: @ketab_n

الأمر جعله يستعيد رباطة جأشه وغدا رزيناً كرواقي[1]، مظهراً عدم اكتراث بالحياة أو الموت، باللذة أو الألم، على ما تفترض مناقبيتهما القتالية المتبعة. كما أن طريقتهما في الموت، فيما بعد، لم تعكس ذلك الأكثر خزياً في أفعالهما البطولية السابقة. كل آلام التعذيب الناري اللاذعة لم تأت إلا لتنقية روح الرجولة فيهما، وإذ بات أمر إنقاذ حياتهما خارج سلطان التجار، فقد انزويا في نفسيهما، بحسب تقاليدنا المتبعة، وذلك ما أن شرع الهنود بتنفيذ تلك المأساة الوحشية»- أدير[2]، «الهنود الأمريكيون»، ص. 383، 1775.

(1) رواقي: أحد أتباع المذهب الفلسفي الذي أنشأه زينون في نحو عام 300 ق.م والذي قال إن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة (م).

(2) جايمس أدير، هو تاجر هندي أحمر ولد في عام 1709 (م).

Twitter: @ketab_n

هروب صبيا السينيكا

كان عدد من محاربي السينيكا يصطادون في الغابات، وفي أحد الصباحات حين مضوا لابتداء يوم الصيد، تركوا خلفهم صبيين لحراسة المعسكر. لم يمض وقت طويل على ذهابهم حتى وصلت مجموعة محاربة من الشيروكي، وإذ وجدوا الصبيين وحدهما في المعسكر، فقد أخذوهما معهم وانطلقوا عائدين إلى الجنوب، مسافرين بسرعة جعلت الصيادين، حين عادوا إلى المعسكر في المساء، يُقرون بلا جدوى اللحاق بهم.

حين وصل الشيروكي إلى بلادهم أعطوا الصبيين لشيخ قُتل ابناه على أيدي السينيكا. أخذ الشيخ الصبيين وتبناهما، وقد تربيا معه إلى أن شبا وصارا قويين بما فيه الكفاية لذهابهما إلى الصيد بمفردهما.

غير أنهما طوال الوقت ظلا يتذكران موطنيهما، وفي أحد الأيام قال الفتى الأكبر لأخيه: «هيا نقتل الشيخ ونهرب». فقال الآخر: «لا، قد نضل سبيلنا إن هربنا، إذ أننا بعيدان جداً عن الوطن».

Twitter: @ketab_n

قال شقيقه: «إني أذكر الطريق». فعكفا على وضع خطة للفرار. بعد أيام قليلة اصطحب الشيخ الصبيين، وانطلق الثلاثة للصيد في الجبال. حين باتوا بعيدين عن القرية أقدم الصبيان على قتل الشيخ وأخذا كل ما يمكنهما حمله بسهولة من لحم ووجبات الذرة المحمصة، وانطلقا في طريق العودة إلى الشمال، متجنبين الطريق الرئيسة ومتبعين سلسلة الجبال. بمرور أيام عدة بلغوا نهاية الجبال ووجدوا طريقاً بدت للأخ الأكبر بأنها الطريق نفسها التي أُخذا عبرها حين أُسِرا. بلا وجل مضيا حينذاك في الطريق حتى بلغا أرضاً واسعة قُطعت منها الأشجار، وفي آخرها البعيد بيوتاً، فقال الأخ الأكبر: «أعتقد أن هناك هو المكان الذي كنا نحيا فيه». زمان طويل كان قد مضى، ما جعلهما غير متأكدين تماماً، كما أنهما كانا يلبسان أزياء الشيروكي، فاعتبرا أنه من الأكثر أماناً انتظار حلول الظلام. شاهدا نهراً أمامهما فمضيا ونزلا إليه وجلسا خلف شجرة كبيرة ينتظران. سرعان ما جاءت بضع نسوة للتزود بالماء ومررن على مقربة من الشجرة من دون الانتباه للصبيين. فقال الشقيق الأكبر: «أعرف هؤلاء النساء. أحداهن هي أمنا». انتظرا حتى ملأت النساء دلاءهن وانطلقن إلى القرية، حينها انطلقا راكضين نحوهن مطلقين هتاف تحية السينيكا، «غووي! غووي!»

Twitter: @ketab_n

ذعرت النساء في البداية واعتقدن أن هناك مجموعة من الشيروكي، لكنهن اقتربن من الصوت حين سمعن الهتاف بلغتهن. حينذاك تعرفت الأم على ابنيها وقالت: «هيا بنا نعود ونرقص للميتين العائدين إلى الحياة»، فكانوا جميعاً مسرورين ومضوا إلى القرية معاً - اقتبست من كورتن[1]، «مخطوطة السينيكا».

Twitter: @ketab_n

(1) جيرمايا كورتن (1839-1906)، هو لغوي ومترجم وكاتب أمريكي، تخصص في ترجمة الأساطير ودراستها (م).

المُنْجِدون الخفيون

قاد الزعيم الحربي للسينيكا، غانوغوايويون، مجموعة مقاتلة في مواجهة الشيروكي. حين اقتربوا من البلدة الأولى، ترك رجاله خارج تلك البلدة ودخل بمفرده. في البيت الأول وجد عجوزاً وحفيدتها. لم يترياه، فدخل إلى الآسي[1] واختبأ تحت بعض الأخشاب. عندما حل الظلام سمع العجوز تقول: «قد يكون غانوغوايويون في الجوار، سوف أوصد الباب». بعد ذلك سمعهما تتجهان إلى السرير. عندما اعتقد أنهما أغفتا دخل إلى البيت. كانت النار قد خفتت، إلا أن الفتاة كانت ما زالت يقظة وقد رأته. كادت أن تصرخ، عندما قال، «أنا غانوغوايويون. إن صرخت فسوف أقتلك. وإن حافظت على هدوئك فلن أؤذيك». تبادلا الكلام، وقال لها إنه في الصباح ينبغي لها أن تجلب له ابنة الزعيم. وعدته بأن تفعل ذلك، وعينت له مكاناً ينتظرها فيه. وغادر الدار قبل طلوع الضوء.

(1) كوخ صغير للمؤن (م).

Twitter: @ketab_n

في الصباح توجهت الفتاة إلى منزل الزعيم وقالت لابنته: «هيا بنا نذهب إلى الغابة معاً». استعدت ابنة الزعيم ورافقتها، وحين بلغتا المكان الذي كان غانوغوايويون يختبئ فيه وثب الأخير من مخبئه وقتلها، من دون أن يؤذي الفتاة الأخرى. سلخ فروة رأسها وأطلق عالياً صيحة سلخ فروة الرأس حتى سمعها جميع المحاربين في البلدة فخرجوا يتعقبونه راكضين. لوح بفروة الرأس في وجههم ثم استدار وأخذ يركض. أردى أول من اقترب منه، لكنه حين حاول التسديد نحو شخص آخر انكسر السهم وتمكن الشيروكي من الإمساك به.

قيدوه وأخذوه إلى امرأتين من القبيلة تملكان سلطة تقرير ما ينبغي فعله به. كان لكل من هاتين المرأتين وشم ثعبانين على شفتيها، ورأساهما متواجهين، على نحو يجعل الثعبانين يفتحان فمهما ما إن تفتح المرأة فمها. وقد قررت المرأتان أن يجري حرق باطن قدميه كي تمتلئا بالقروح، ثم توضع حبات الذرة تحت جلده وأن يطارد بالعصي ويضرب حتى الموت.

جردوه من ثيابه وأحرقوا قدميه. ثم ربطوا حبلاً من لحاء الشجر حول خصره، وقام شيخ بالإمساك بطرف الحبل من الجهة الأخرى، وجعله يركض بين أرتال الناس الذين يحملون العصي

Twitter: @ketab_n

بأيديهم. حين أعطوا إشارة الشروع بالضرب، شَد غانوغوايويون الحبل وسحبه من يدي العجوز واخترق الرتل وراح يركض حتى توارى عن أنظار الجميع. حين حل المساء زحف واختبأ إلى جذع أجوف. كان عارياً ومجرداً من السلاح، وكانت قدماه في حالة مزرية، فاعتقد أنه لن يقوى على الفرار أبداً.

سمع وقع أقدام على أوراق الأشجار خارج الجذع فظن أن الأعداء بلغوه. اقترب صوت الخطى من الجذع وقال أحدهم لآخر: «هذا هو صديقنا». ثم قال الغريب لغانوغوايويون: «تظن أنك كمثل الميت تماماً، لكن هذا غير صحيح. سوف نعتني بك. أخرج قدميك». أخرج قدميه من الجذع وأحس بشيء يلعقهما. ثم، بعد وقت قصير، قال الصوت: «أرى أننا لعقنا قدميه بما فيه الكفاية. ينبغي لنا الآن أن نزحف إلى داخل الجذع ونتمدد على كل طرف من طرفيه كي يبقى دافئاً». زحفا إلى الداخل وباتا إلى جانبه. وفي الصباح زحفا خارجين وطلبا منه أن يُخرج قدميه مرة أخرى. لعقا القدمين من جديد ثم قالا له: «لقد قمنا بكل ما نستطيع القيام به هذه المرة. امض في سبيلك إلى أن تبلغ مكاناً حيث كنت قد أقمت فيه من زمن بعيد ملتجئاً من لحاء الشجر، وتحت اللحاء سوف تجد شيئاً يساعدك».

Twitter: @ketab_n

زحف غانوغوايويون خارجاً من الجذع، إلا أنهما كانا قد غادرا. باتت قدماه الآن في حالة أفضل وصار بوسعه السير براحة. مضى في سبيله حتى اقتربت الظهيرة، وقد بلغ حينها ملجأ اللحاء ووجد تحته سكيناً ومخرزاً وحجر صوان، كان رجاله قد خبأوها هناك منذ سنتين. أخذها وأكمل طريقه.

زهاء المساء نظر حوله إلى أن وجد شجرة جوفاء أخرى فزحف إلى داخلها كي ينام. في الليل سمع ثانية وقع أقدام وأصوات. وحين أخرج قدميه مجدداً، كما قال له الغريبان أن يفعل، قاما بلعقهما كما في السابق ثم زحفا إلى داخل الجذع وتمددا على كل طرف من طرفيه كي يبقى دافئاً. وقد ظل عاجزاً عن رؤيهما. وفي الصباح وبعد أن خرجا قاما بلعق قدميه مجدداً وقالا له: «مع حلول الظهيرة سوف تجد طعاماً». ثم غادرا.

زحف غانوغوايويون خارجاً من الشجرة ومضى. في الظهيرة صادف جذعاً مشتعلاً، وبقربه كان ثمة دب ميت، ما زال ساخناً كما لو أنه قُتل منذ وقت قصير. قام بسلخ الدب وقد وجد أنه سمين جداً. قطع اللحم وشوى مقداراً منه يستطيع أن يأكله ويحمله معه. وفيما كان الشواء قائماً راح يكشط الجلد ويحفه برماد خشب مهترئ كي ينظفه إلى أن حل به التعب. حين جاء الليل، استلقى

Twitter: @ketab_n

لينام. سمع وقع الأقدام والأصوات مرة أخرى وأحدهم يقول: «حسناً، أن صديقنا مستلق. لديه ما يكفي ليأكل، ولا يبدو مشرفاً على الموت. هيا نلعق قدميه من جديد». وعندما فرغا من ذلك قالا له: «ينبغي أن لا تقلق بعد الآن. فسوف تبلغ دارك وتكون على ما يرام». قبل طلوع النهار تركاه ومضيا.

عندما أقبل الصباح تدثر بجلد الدب كأنه رداء، جاعلاً شعر الجلد من الخارج، وأكمل طريقه آخذاً معه ما استطاع حمله من لحم. في تلك الليلة جاءه صديقاه مرة أخرى. قالا له، «قدماك في حال جيدة، لكنك سوف تشعر بالبرد»، فتمددا من جديد على كل طرف من طرفيه. قبل طلوع الضوء غادرا قائلين، «قبيل الظهيرة سوف تجد ما ترتديه». مضى في طريقه ومع انتصاف النهار وجد دبين صغيرين كانا قد قُتلا لتوهما. سلخهما وتدثر بجلدهما، ثم شوى حاجته من اللحم واستلقى لينام. في الصباح صنع من الجلد طماقاً[1] لساقيه، وحمل بعض اللحم ومضى في طريقه.

جاء صديقاه من جديد في المساء التالي وأخبراه بأنه سوف يعثر على شيء آخر كي يرتديه. وقرابة الظهيرة وجد خشفين[2] كانا قد قتلا لتوهما. سلخ جلدهما وصنع منهما لنفسه جوزاً

(1) الطماق: كساء للساق من جلد أو قماش (م).
(2) الخِشْف: ولد الظبي (م).

Twitter: @ketab_n

من المُقْسِين[1]، ثم قطع بعض اللحم، وانطلق مسافراً إلى أن حل المساء، حيث أوقد ناراً وتناول عشاءه.

مرة أخرى في ذلك المساء سمع وقع الأقدام والأصوات وأحدهم يقول: «يا صديقي، عما قريب سوف تبلغ دارك بأمان وسوف تجد أصدقاءك أيضاً. الآن سوف نخبرك عن سبب مساعدتنا لك. ففي كل مرة كنت تصطاد فيها كنت على الدوام تمنحنا الجزء الأفضل من اللحم وتترك لنفسك الجزء الأصغر لا أكثر. إننا ممتنان لك ولهذا ونقوم بمساعدتك. في الصباح سوف ترانا وتدرك من نكون».

عندما استيقظ في الصباح كانا ما زالا هناك - رجلان كما اعتقد - لكن وبعد أن تلفظ بآخر كلمات على مسمعهما وانطلق في طريقه، استدار لينظر إليهما مرة أخرى، فكان أحدهما قد صار ذئباً أبيض والآخر ذئباً أسود. في ذلك اليوم وصل إلى دياره - اقتبست من كورتن، «مخطوطة السينيكا».

(1) حذاء لا كعب له مصنوع من جلد ناعم، ومرفوع النعل عند جوانب القدم وفوق أصابعها حيث يتصل بقطعة جلدية على شكل حرف «يو» فوق أعلى القدم (م).

Twitter: @ketab_n

فرار هاتسينوندون من الشيروكي

كان هاتسينوندون أعظم محاربي السينيكا. في إحدى المرات قاد مجموعة محاربة في مواجهة الشيروكي. سافر ومجموعته تلك حتى بلغوا سلسلة جبلية عظيمة عند حدود بلاد الشيروكي، حيث أدركوا حينها أن أعداءهم يراقبون الجهة المقابلة. طلب هاتسينوندون من رجاله أن يتوقفوا في المكان الذي بلغوه، فيما تقدم هو إلى الأمام ليستطلع المكان. اكتشف الأعداء أمره وطاردوه، فالتجأ إلى أجمة قصب، حيث كان القصب نابتاً في رقعتي أرض كبيرتين تفصل بينهما مساحة أرض مفتوحة، طويلة وضيقة. رأوه يدخل بين القصب، فأضرموا النار برقعة الأرض التي دخل فيها وراحوا، من الموضع المفتوح، يترقبون خروجه، لكن وقبل أن يبلغوا الموضع المذكور، ركض عابراً إلى الرقعة الأخرى وهرب. حين احترق القصب بحث الشيروكي عن جسده في الرماد، لكنهم لم يعثروا على أي أثر منه، فمضوا إلى ديارهم.

Twitter: @ketab_n

حين وصل هاتسينوندون إلى أجمة القصب الثانية كان التعب قد حل به، فتمدد على الأرض ونام. في الليل وفيما كان نائماً جاءه رجلان وأخذاه من ذراعه قائلين: «لقد جئنا من أجلك. أحدهم أرسل في طلبك». اصطحباه في رحلة طويلة، فوق عقد السماء، حتى بلغوا منزلاً. حينها قالا له: «هنا يحيا الرجل الذي أرسل في طلبك». نظر أمامه لكنه لم ير باباً. ثم جاء صوت من الداخل قائلاً: «ادخلوا»، فانفتح شيء كمثل الباب من تلقاء نفسه. دخل هاتسينوندون وهناك كان يجلس هاوينيو، إله الرعد.

قال هاوينيو: «لقد أرسلت في طلبك وها أنت الآن هنا. هل تشعر بالجوع؟». فكر هاتسينوندون: «إنه لأسلوب غريب في الحديث، هذه ليست الطريقة التي أتبعها في تقديم الطعام». أدرك الرعد أفكاره، فضحك وقال، «أقول هذا للمزاح فقط». نهض من مكانه وأحضر نصف رغيف من الخبز، ونصف تفاحة برية، ونصف حمامة. قال هاتسينوندون: «هذا لا يكفيني كي أشبع»، لكن الرعد أجاب: «إذا أكلت هذا، فثمة المزيد». بدأ بتناول الطعام، لكنه وفيما كان يأكل، أخذت تلك الأشياء تستعيد اكتمالها، فلم يتمكن من التهامها كلها.

Twitter: @ketab_n

وبينما كان جالساً سمع وقع أقدام شخص يركض في الخارج، وقد شُرع الباب وانفتح على الفور ودخلت الشمس، حادة السطوع ما حمل هاتسينوندون على طأطأة رأسه. تبادل الكائنان الحديث، لكن السينيكا لم يفهم كلمة واحدة، وسرعان ما غادرت الشمس الزائرة. حينها قال الرعد: «إنه الذي تدعونه الشمس، والذي يراقب العالم في الأسفل. الليل يخيم هناك الآن والشمس على عجلة من أمره متجهاً إلى الشرق. يقول إن معركة كانت مندلعة منذ بعض الوقت. إني أحب السينيكا والشيروكي على حد سواء، وحين تعود إلى محاربيك عليك أن تطلب منهم وقف القتال والعودة إلى بيوتهم». ثم عاد وجلب له الطعام، نصفاً من كل نوع، وحين تناول هاتسينوندون طعامه قال الرعد: «الآن سوف يعيدك رُسُلي إلى ديارك».

فُتح الباب ثانية من تلقائه، وتبع هاتسينوندون مرافقيه اللذين من شعب السماء، حتى أوصلاه إلى المكان الذي كان قد نام فيه، وتركاه هناك. وجد مجموعته في ذلك المكان وروى للمحاربين ما رآه. عقدوا مجلساً للتباحث بالأمر وقرروا مهاجمة العدو في الحال قبل الذهاب إلى الديار. وقد قادهم هاتسينوندون. التقوا الشيروكي في القتال ثم عادوا بعد ذلك إلى ديارهم بفروات الرؤوس.

Twitter: @ketab_n

قاد هاتسينوندون مجموعة مقاتلة أخرى في مواجهة الشيروكي، إلا أنه وقع في الأسر هذه المرة واقتيد إلى بلدة الشيروكي.

كانت تقاليد الشيروكي تقتضي أن تقوم امرأتان بقول ما يجب فعله بالأسرى. وقد قررتا أنه ينبغي تعذيبه بالنار، فقيّد بشجرة، وجرى تجميع الحطب حوله. أسلم هاتسينوندون نفسه لليأس، حينها اندلعت عاصفة من المطر وقرر الناس انتظار جلائها. انفضوا من حوله وتركوه مقيداً بالشجرة.

بعد وقت قصير جاءته عجوز وقالت له: «يا ابن ابني، تظن أنك مقبل على الموت، غير أن ذلك لن يحصل. حاول أن تهز أوصالك». حاول جاهداً فعل ذلك فتمكن أخيراً من تحرير أوصاله. فقالت له العجوز: «الآن غدوت حراً. لقد أتيت لأرد لك الجميل. هل تذكر أنك عثرت مرة على ضفدعة في قلب دائرة من النار فقمت بإخراجها ووضعتها في المياه. لقد كنت أنا تلك الضفدعة، وها أنا ذي أساعدك الآن. لقد أرسلت عاصفة المطر، وعليك أن تنهض في الحال وتذهب إلى الجدول وتتبع التيار».

Twitter: @ketab_n

عندما توقف المطر عاد الناس إلى المكان، لكن هاتسينوندون كان قد غادر. مضوا في إثره إلى الجدول، غير أنه كان قد وجد شجرة جوفاء ملقاة في المياه وفيها ثقب بجهتها العليا، حيث يمكنه التنفس، فزحف داخلاً فيها ولم يتمكنوا من العثور عليه. ثم جاء اثنان من الشيروكي وجلسا على الجذع وكان بوسعه سماعهما يتحدثان عنه، إلا أنهما لم يعلما بوجوده في الداخل. حين ذهب الجميع، خرج من داخل الجذع ومضى نازلاً إلى النبع. بعد حلول الظلام بلغ مكاناً حيث كان ثلاثة صيادين قد أوقدوا ناراً وناموا لقضاء ليلتهم. فؤوسهم وأسلحتهم كانت معلقة على شجرة. كان هاتسينوندون عارياً. أنصت جيداً إلى أن تأكد من نوم الرجال، ثم تناول أحد فؤوسهم وقتلهم جميعاً، واحداً إثر الآخر. ارتدى ثياب أحدهم، ووضع حزامه بما كان فيه من سكين وفأس. ثم اغتسل في الجدول وجلس قرب النار وأعد عشاءه.

بعد ذلك مدد فروات الرؤوس الثلاثة وطلاها واستلقى قرب النار لينام. في الصباح أخذ ما يستطيع حمله من مؤن ومضى مسافراً في دوامة كبرى إلى أن عثر على الطريق التي كان قد أتى بها مع محاربيه. عاين آثار أقدام جديدة وتبعها حتى رأى

Twitter: @ketab_n

أمامه دخاناً متصاعداً. أنصت إلى أن سمع رجالاً يتحدثون بلغة السينيكا، وأدرك أن هؤلاء كانوا جماعته. ثم أطلق هتاف السينيكا – غووي!—ثلاث مرات متتالية فركض أصدقاؤه لملاقاته. كان الأصدقاء خائفين من أن يكون قد قُتل، لكنهم الآن سُروا من كونهم انتظروه. ومضوا إلى الديار معاً. هذه هي قصتهم – اقتبست من كورتن، «مخطوطة السينيكا».

Twitter: @ketab_n

حامل القُنب

عند المنحدر الجنوبي للسلسلة الجبلية، على طول الطريق من روبنسفيل إلى نهر فالي في مقاطعة الشيروكي بنورث كارولينا، ثمة بقايا لعدد من الأنصاب[1] الحجرية. الركائز سويت بالأرض الآن، لكن الحجارة منذ ثلاثين عاماً مضت كانت لا تزال مكومة في شكل أهرام، حيث كان كل عابر سبيل من الشيروكي يضيف إليها حجر.

كانت أكوام الحجارة هذه، بحسب التقاليد، شواهد قبور عدد من نساء وأطفال القبيلة الذين بُوغتوا وقُتلوا في ذلك الموضع على يد مجموعة مُغيرة من الإيروكوا قبيل قيام السلام النهائي بين الأمتين. وحين وصلت الأخبار إلى القرى في هيواسي وتشي أُوا تشكلت مجموعة بقيادة تالي تانيغي سكي، «حامل القنب»، لتعقب العدو والانتقام منه. من الأفراد الآخرين في المجموعة كان والد الزعيم البارز تسونو لاهون سكي، أو جونالوسكا،

(1) هذه الأنصاب التي يرفعها الهنود الحمر هي عبارة عن حجارة ترصف فوق بعضها بعض كمعلم أو للإشارة إلى ذكرى معينة (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

الزعيم الذي توفي في تشي أُوا قرابة العام 1855.

مضوا في أثر الأيروكوا لأيام عديدة عبر جبال سموكي العظيمة، وفي الغابات وفوق الأنهار، حتى تعقبوهم في النهاية إلى قلب بلدتهم في أقصى شمال بلاد السينيكا. وقد صادفوا في طريقهم مجموعة محاربة أخرى متجهة إلى الجنوب، فأقدم الشيروكي على قتلهم جميعاً وسلخوا فروات رؤوسهم.

حين اقتربوا من بلدة السينيكا كان الليل موشكاً على الهبوط، وسمعوا صياحاً منبعثاً من دار البلدة، حيث كانت النسوة يرقصن حول فروات رؤوس شيروكي طازجة. توارى المُنتقِمون قرب النبع، وحين اقترب الراقصون من الماء كي يشربوا أجهز الشيروكي عليهم بهدوء، واحداً تلو الآخر، حتى انتزعوا عدد فروات رؤوس مطابق للذي انتُزع في تشي أُوا، وقد ظل الراقصون في دار البلدة غافلين عن اقتراب العدو. حينها قال قائد الشيروكي: «لقد عادلنا فروات رؤوس نسائنا وأطفالنا. فهل نرجع إلى ديارنا الآن كالجبناء، أم نُعلي صيحة الحرب ونجعل السينيكا يدركون بأننا رجال؟». قال رجاله: «فليأتوا إن أرادوا»، ثم أطلقوا صيحة فروة الرأس عند الشيروكي. في الحال وصلتهم صيحة مضادة من دار البلدة، وتوقف الرقص

Twitter: @ketab_n

على نحو مفاجئ. اندفع محاربو السينيكا إلى الخارج بأسلحتهم الجاهزة وبالفؤوس. إلا أن الشيروكي الحاذقين كانوا قد ابتعدوا. جرت مطاردة حامية في الظلام، غير أن الشيروكي أدركوا الطرق وكانوا رشيقين وعدائين سريعين، وتمكنوا من الابتعاد ولم يخسروا سوى رجل واحد. عاد الباقون إلى الديار سالمين، وقد سُر الناس كثيراً بشجاعة حامل القنب وبنجاحه، فمنحوه سبع زوجات.

Twitter: @ketab_n

السينيكا المصلحون ذات البين

في أثناء الحرب الطويلة مع الشيروكي، حصل مرة أن قرر ثمانية رجال من السينيكا القيام برحلة إلى الجنوب للنظر في إمكانية التوصل إلى سلام مع أعدائهم. مع اقترابهم من حدود بلاد الشيروكي التقوا بعض الصيادين من تلك القبيلة وأعلموهم بالغاية التي جاؤوا من أجلها. أسرع هؤلاء في الحال حاملين معهم الخبر، وحين وصل سعاة السلام، لاقوا استقبالاً حسناً من قبل زعماء الشيروكي الذين دعوا إلى عقد مجلس للتباحث بالاقتراح.

أيد جميع الزعماء السلامَ، إلا واحداً منهم، حيث اشترط من المبعوثين الثمانية أولاً الإنضمام إليهم في مجموعة محاربة كانت تتحضر للقتال ضد قبيلة في أقصى الجنوب، هي على الأرجح قبيلة الكريك[1]. وافق رجال السينيكا على ذلك وانطلقوا مع المجموعة المحاربة إلى الجنوب، إلا أنه وفي نتيجة المعركة، تم اعتقال البوم، قائد السينيكا. وقد هرب السبعة الآخرون مع الشيروكي.

(1) Creeks (م).

Twitter: @ketab_n

عقد مجلس في معسكر الأعداء، وتقرر وجوب حرق البوم على وتد.

جُمع الحطب واتخذت جميع الاستعدادات، لكنهم ما إن هموا بتقييده حتى طلب منحه امتياز المحارب، فينشد أغنية موته ويضرب الوتد وهو يتلو مآثره الحربية. أرضى الطلب أعداءه الذين وضعوا التمْهُوْك[1] في يديه وأشاروا إليه أن يبدأ.

تلا في البداية المآثر التي حققها في الشمال، ثم مآثره في الغرب، محدداً الأزمنة والأمكنة وعدد فروات الرؤوس التي سلخها، إلى أن سر أعداؤه كثيراً بذلك واهتموا لأمره حتى أنستهم مآثره أنه سجين. كانت تلك قصة طويلة، لكنه في النهاية ذكر المعركة التي أُسر فيها. روى كم قتل من أقارب الرجال الكثر الذين كانوا حوله، ثم، ضارباً الوتد بالتمْهُوْك، قال: «قتلت كثيرين منكم، وكثيرون سوف أقتلهم بعد»، ومع تلك الكلمة ضرب رجلين، وثب مخترقاً حلقة المحاربين، وابتعد. حصل كل ذلك على نحو مفاجئ حيث لم يفق أعداؤه من ذهولهم إلا بعد مضي لحظات عدة. حينها امتشقوا اسلحتهم وانطلقوا في إثره عبر الغابات، لكنه كان قد أحسن الانطلاق وأخذ يعدو في

(1) فأس يصطنعها الهنود الحمر سلاحاً وأداة (م).

Twitter: @ketab_n

سبيل حياته واستطاع تخطي المطاردة ووصل أخيراً إلى معسكر الشيروكي سالماً وانضم إلى رفاقه السبعة.

بهذا الإثبات للنوايا الحسنة عقد الشيروكي المعاهدة، وعاد مصلحو ذات البين إلى بلادهم - اقتبست من سكولكرافت، «ملاحظات حول الإيروكوا»، ص. 258.

Twitter: @ketab_n

أصل رقصة اليونتونْويساس

كانت شقيقتان من السينيكا ومعهما ولد صغير هو ابن الأخت الكبرى، في أجمة قصب السكر قرب منزلهم حين هاجمتهم مجموعة محاربة من الشيروكي وأخذتهم معها. عندما علم أهل البلدة بما حدث، قرروا عدم الذهاب في إثر الأعداء مخافة أن يقدم الأخيرون على قتل المرأتين، فلم يشرعوا في مطاردة.

أخذ الشيروكي المرأتين معهم ومضوا حتى باتوا على بعد يوم واحد من بلدات قبيلتهم. أدركت الأخت الكبيرة الأمر وعقدت العزم على أن تحاول الهرب. وكانت تخبئ سكيناً بلا مقبض تحت حزامها، وفي تلك الليلة، حين استلقوا جميعاً للنوم قرب النار، ظلت هي مستيقظة. وإذ علا صوت غطيطهم نظرت حولها. كانت هي وأختها مقيدتين ببعضهما بعض، وعند كل جانب حولهما كان ثمة شخص من الشيروكي جاثماً على الأرض فوق طرف الحبل الذي يقيدهما. أخرجت سكينها وقطعت الحبل من دون أن توقظ الرجال، ثم قامت بإنهاض اختها وهمست لها

Twitter: @ketab_n

بصوت خفيض كي تتبعها. كانتا على وشك أن تتركا الصبي، لكنه شرع يبكي، فقالت إذ ذاك: «هيا فلنمت معاً»، وحملته على ظهرها، واسرعت المرأتان في الابتعاد.

بعد مضي وقت قصير علت خلفهما أصوات منذرة، فأدركتا أنه اكتشف أمر فرارهم، ثم ظهر لهما وميض مشاعل حطب الصنوبر يلوح بين الأشجار حيث كان الشيروكي يتقدمون باحثين عنهم. علمت المرأة أن الشيروكي سوف يكمنون لهم في ناحية الشمال، بمحاذاة الطريق المؤدية إلى بلاد السينيكا، فاستدارتا والتفتا نحو الجنوب إلى أن شاهدتا ناراً ورجلاً يجلس قرب شجرة يهز خشخيشة ويشدو بصوت خفيض. اكتشفتا أنهما عاودتا المجيء إلى معسكر الأعـداء، فقالت الأخت الكبرى: «هذا لن يحصل أبداً، علينا أن نحاول مرة أخرى. لنمض إلى الأمام مباشرة نحو تلك الشجرة الكبيرة هناك، ومنها مباشرة إلى الأخرى فالأخرى». على هذا النحو مضتا في خط مستقيم حتى الصباح. حين طلعت الشمس، سلكتا اتجاهاً مختلفاً نحو ديارهما، وفي الليل استراحتا مع الولد في الغابات.

سافرتا طوال اليوم التالي، وفي الليل استراحتا مجدداً. في تلك الليلة خاطب صوتٌ المرأة الصغرى قائلاً: «أفي هذا المكان

Twitter: @ketab_n

تستريحان؟». أجابت المرأة: «أجل». فقال الصوت: «تابعا طريقكما، وسوف تبلغان الموضع الذي أُسرتما فيه. لن تصابا بأي مكروه. غداً ستعثران على طعام». أنهضت اختها وأخبرتها بما قاله الصوت لها.

في الصباح أكملتا طريقهما وعند الظهيرة عثرتا على ظبي كان قد قتل للتو. ثم وجدتا على مقربة من المكان جذعاً تشتعل فيه النار، فقامتا بشي بعض اللحم، وتناولتا والصبي غداء جيداً، ثم أخذتا معهما ما أمكن لهما حمله من اللحم. أكملتا طريقهما، وقد عسكرتا في كل ليلة، وحين كاد اللحم أن ينفد احتفظتا بما بقي منه للصبي الصغير.

أخيراً في إحدى الليالي تكلم الصوت مجدداً وقال للأخت الصغرى: «أنتم في الطريق الصحيح، وفي الغد سوف تبلغون حدود بلاد السينيكا. سوف تعثرون على الطعام. هذا كل شيء».

في الصباح أخبرت أختها ما قاله الصوت لها. انطلقتا من جديد ومشتا حتى الظهيرة، وقد مرتا حينذاك بحقل طماطم برية. حفرتا في الأرض ووجدتا الكثير من الطماطم، ثم نظرتا حولهما فشاهدتا دخاناً منبعثاً كأن هناك حلقة نار.

Twitter: @ketab_n

جمعتا الحطب وأوقدتا النار وشوتا الطماطم. ثم أكلتا مع الصبي بقدر ما اشتهوا وحملتا ما تبقى.

مضتا في السفر حتى كادت الطماطم أن تنفد. ثم جاء الصوت في الليل مرة أخرى إلى المرأة الصغرى قائلاً: «في ظهيرة يوم غد سوف تبلغان دياركما، والشخص الأول الذي تلتقيانه سيكون عمك. حين تبلغان البلدة عليكما أن تجمعا الناس وتخبراهم عما حصل. عليكما الذهاب إلى البيت الكبير فتخلعان تنورتيكما وتحملانهما على كتفيكما. ثم عليكما الدخول والإنشاد: «لقد جئنا إلى الدار، نحن هنا». إنها أغنية اليونتونْويساس، ويجب أن تبقى مخصصة للنساء. واعلما الآن بأننا شعب السماء، الهَادْيُوْنْياغِيْونون، وقد اعتنينا بكم طوال هذا الوقت».

حين استيقظت المرأة الصغرى، أخبرت أختها بما قاله لها الصوت، فقالت لها: «يجب أن نفعل كل هذا»، وشرعتا بالغناء وهما تسيران. قرابة الظهيرة سمعتا صوت فأس يقطع الخشب وحين اقتربتا من مصدر الصوت وجدتا عمهما يقطع الخشب لصنع الملاعق. لم يرهما إلا حين تكلمتا، وفي البداية كاد ألا يصدق أنهما ما زالتا على قيد الحياة، لأنه كان مدركاً لوقوعهما في قبضة الشيروكي. سُعد كثيراً برؤيتهما، وفي أثناء توجههم

Twitter: @ketab_n

إلى البلدة أخبرتاه بكل ما أمرهما شعب السماء القيام به. حين وصلوا إلى البلدة نادى الرجل الناس للاجتماع، وتوجهوا إلى البيت الكبير. هناك أنشدت المرأتان أغنيتهما ونفذتا كل ما طلب منهما القيام به، وحين فرغتا من ذلك قالتا: «هذا كل شيء»، وجلستا. إنها أغنية يونتونْويساس ذاتها التي ما زالت النساء يشدين بها – اقتبست من كورتن، «مخطوطة السينيكا».

Twitter: @ketab_n

مغامرات غا نا بين الشيروكي

كان غا نا زعيم حرب من السينيكا. وقد دعا مرة لانعقاد مجلس وقال: «علينا الذهاب إلى الشيروكي لنرى إن كان بإمكاننا التصادق والعيش معاً بسلام بعد ذلك». وافق الشعب، ثم قال الزعيم: «علينا أولاً، قبل أن ننطلق، الذهاب إلى الماء». فذهبت مجموعة كبيرة من المحاربين، ومضت في الغابة العميقة عند طرف النهر. لم يكن معهم نساء. ولأيام عشرة شربوا الدواء[1] في كل صباح كي تقيأوا واغتسلوا واستحموا في النهر في كل يوم.

ثم قال الزعيم: «علينا الآن أن نحصل على ريش النسر». صعدوا إلى قمة تل مرتفع وحفروا خندقاً في الأرض بطول جسد رجل، ووضعوا رجلاً فيه، ونثروا الأغصان فوقه كي لا يُرى، ثم وضعوا فوق الأغصان جسد غزال كامل. ابتعد الناس وتخفوا، ونطقوا بالكلمات التي تدعو شادا غي يا، النسر العظيم الذي يحيا في الغيوم، إلى الهبوط.

(1) الذي يحوي القوة السحرية (م).

Twitter: @ketab_n

سمع الرجل الممدد تحت الأغصان صوتاً، وقد جاء نسر عادي وأكل قليلاً وعاود الطيران. ثم ما لبث ذاك النسر أن عاد، وأكل المزيد، وطار في اتجاه آخر. ذهب ونادى الطيور الأخرى فأتت، لكن الرجل قام بكشها، لأنه لم يكن يريد من الطيور العادية أن تأكل ذلك اللحم. بعد هنيهة سمع في الجو صوتاً عظيماً، فأدرك أنه شادا غي يا، الطائر الذي يريدونه.

شادا غي يا طائر حَذِر جداً، وقد قام بالنظر حوله في كل اتجاه على مدى بعض الوقت قبل بدئه بأكل اللحم. وفيما كان النسر العظيم يأكل رفع الرجل يده بانتباه والتقط ذيل الطائر وتشبث به. استقام شادا غي يا وطار، وكان الرجل قد انتزع منه ريشة واحدة. كان عليهم أن يكمنوا لنسور كثيرة على هذا النحو، وقد مضت سنتان قبل أن يتمكنوا من الحصول على ما يكفي من الريش لصنع ذيل كامل، كي يصبحوا جاهزين للانطلاق إلى بلاد الشيروكي.

قضوا على الطريق أياماً عدة، وحين بلغوا أولى بلدات الشيروكي وجدوها محاطة بسياج يمنع دخول أي عدو إليها. انتظروا إلى أن فتحت البوابة، وتقدم حينها اثنان من راقصي السينيكا، حاملين معهما ريش النسر ومطلقين صيحة الإشارة.

Twitter: @ketab_n

عندما سمع الشيروكي الصوت خرجوا ورأوا الرجلين يغنيان ويرقصان، فقال الزعيم: «لابد من أن هذين الرجلين يحملان رسالة ما». تقدم رسولا السينيكا وقالا: «اعقدوا مجلساً، فقد جئنا للتباحث في أمر هام». توجه الجميع إلى دار البلدة، وتبع السينيكا الباقون الرجلين اللذين كانا يرقصان. غدت دار البلدة مزدحمة، وغنى السينيكا ورقصوا إلى أن حل بهم التعب قبل أن يتوقفوا. لم يرقص الشيروكي بدورهم.

بعد الرقص قال زعيم السينيكا: «سوف أخبركم الآن لماذا قطعنا كل هذه المسافة عبر الغابات كي نقابلكم. فلقد فكرنا وارتأينا، فيما بين أنفسنا، أن الوقت حان لوقف الاقتتال. شعبكم وشعبنا كانا على الدوام ساعيين لقتل بعضهما بعض، ونحن نرى أن الوقت حان لوقف هذا الأمر. هذا حزام الوامبام ليثبت أني أنطق بالحق. إن كان شعبكم يقبل الود، فخذوه»، ورفع الحزام عالياً. خطا زعيم الشيروكي إلى الأمام وقال: «سوف أبقيه في يدي، وفي الغد سنعلمكم بقرارنا». ثم استدار وقال للناس: «اذهبوا إلى بيوتكم وأحضروا الطعام». ذهبوا وعادوا بطعام كثير توزع في أكوام كبيرة في أرجاء الدار، وقد أكل أبناء القبيلتين معاً، ولم ينفد الطعام.

Twitter: @ketab_n

في اليوم التالي أكلوا معاً مرة أخرى، وحين فرغ الجميع توجه زعيم الشيروكي بكلامه إلى السينيكا قائلاً: «لقد قررنا الاستجابة للود ودفن أسلحتنا، من سكاكين وفؤوس، فلا يشهرها أي رجل ثانية».

«لقد سرنا قبولكم عرضنا، وها نحن نرمي وإياكم أسلحتنا معاً، وليُرفع الوامبام الأبيض بيننا، وليكن الحزام بطول رجل وليصل بطرفه إلى الأرض».

ثم قال زعيم الشيروكي لشعبه: «والآن إن أراد أحدٌ منكم تبني قريب من السينيكا فليفعل». فقامت بعض نسوة الشيروكي واخترن رجلاً من السينيكا وقلن له: «سوف تكون عمنا»، وأخريات اخترن رجلاً آخر ليكون أخاً لهن، وهكذا إلى أن لم يبق سوى الزعيم غا نا وحيداً، غير أن زعيم الشيروكي قال: «يجب ألا يأخذ غا نا أحد، لأن ثمة شاباً هنا سوف يتخذه أباً». فتقدم الشاب من غا نا وقال، «يا أبي، إني مسرور برؤيتك. يا أبي، سوف نذهب إلى البيت»، ثم قاد غا نا إلى منزل أُمه، حيث كان غا نا قد أمضى ليلته الأولى. الشاب ذاك كان ابنه بحق، وحين وصل غا نا إلى البيت تذكر أن المرأة هي زوجته التي أخذها الشيروكي منذ زمن بعيد.

Twitter: @ketab_n

وفيما كانوا هناك جاء رسول من قبيلة سيوكغواغيُيُونو، التي تعيش قرب المياه المالحة العظيمة في الشرق، وذلك كي تتحدى الشيروكي في مباريات كرة. كان الرسول يرتدي الجلود الطويلة حتى لامست بأطرافها الأرض. قال إن أبناء قبيلته باتوا في طريقهم وسوف يصلون بعد بضعة أيام محددة.

وصل هؤلاء في اليوم المحدد وفي صباح اليوم التالي بدأوا في الاتفاق مع الشيروكي على الرهان. كان السينيكا ما زالوا هناك. راهن الغرباء على رداءين بالغي الثقل وثمينين، وذلك إلى جانب أشياء أخرى.

بدأ اللعب، وخسر الشيروكي المباريات. فقال السينيكا: «سوف نحاول نحن هذه المرة». وراهن الطرفان على رهانات قيمة ثانية، وبدأ اللعب، لكن السينيكا تمكنوا، بعد جولات قليلة من الركض، من تسجيل نقطة. وقبل أن يمضي وقت طويل سجلوا جميع النقاط وفازوا في المباريات. حينها تضاعفت الرهانات، وفاز السينيكا مجدداً. وإذ حققوا الفوز في المباريات الثلاث أيضاً قال السيوكغواغيُيُونو، «فلنجرب السباق»، ووافق السينيكا.

كان الميدان منبسطاً، والمدى المفتوح واسعاً جداً. اختار الشيروكي عداءً من السينيكا، وقد تم التوافق على أن ركض

Twitter: @ketab_n

الجولة الأولى من دون رهان ومن ثم تُعقد الرهانات في الجولة الثانية. ركضوا الجولة الأولى، وحين بلغوا خط النهاية كان عداء السينيكا متأخراً عن منافسه بمعدل مقاسات جسده لا أكثر. سأله جماعته إن كان قد بذل كل ما بوسعه، فقال: «لا، لم أفعل»، فقاموا بعقد رهاناتهم، وبدأ السباق الثاني - السباق الحقيقي. حين بلغا نصف المسافة، قال عداء السينيكا لمنافسه: «ابذل ما بوسعك الآن، لأنني سوف أبذل ما بوسعي»، وما إن قال ذلك حتى اندفع إلى الأمام تاركاً الآخر بعيداً خلفه وفاز في السباق. حينها قال السيوكغواغيُيُونو: «ما زال هناك سباق إضافي بعد - السباق الطويل»، واستعدوا له، لكن زعيم الشيروكي قال لرجاله: «لقد فزنا على هؤلاء القوم في كل شيء. أعتقد أنه من الأفضل أن نسمح لهم بالفوز في هذا السباق، إذ ربما تدفعهم خسارتهم كل شيء إلى افتعال المتاعب». اختاروا عداء من الشيروكي ليركض، فهُزم، وعاد السيوكغواغيُيُونو إلى ديارهم.

بعد أيام قليلة بعثوا برسول يتحدى الشيروكي في لقائهم بمكان وسيط في معركة. عندما سمع الشيروكي ذلك قالوا للسينيكا،:«عددكم هنا قليل جداً ونحن لا نريدكم أن تُقتَلوا. من الأفضل لكم العودة إلى دياركم». فعاد السينيكا إلى بلادهم.

Twitter: @ketab_n

بعد ثلاثة أعوام عادوا مجدداً لزيارة الشيروكي الذين أخبروهم أن السيوكغواغيْيُونو فازوا في المعركة، وأن زعيم العدو قال على إثر ذلك: «أود لو أقاتل السينيكا، لأنني رجل مزدوج». ولم يمض وقت طويل حتى علم العدو أن السينيكا كانوا هناك، فأرسلوا لهم دعوة متحدية للقتال. قال السينيكا: «علينا أن نحاول إرضاءهم»، وهكذا انطلقوا، مع مرشدين من الشيروكي، إلى بلاد السيوكغواغيْيونو. مضوا في طريقهم إلى أن بلغوا كهفاً في الغابة يبعد يوماً واحداً عن أولى القرى. هناك توقفوا واستعدوا وقاموا ببعث الرسل لإبلاغ العدو، إلا أن الشيروكي قالوا: «عليكم إرسال هؤلاء كي يصلوا بالتزامن مع مغيب الشمس». فعلوا ذلك، وحين اقترب الرسولان من البلدة شاهدا جميع أهلها في الخارج يلعبون الكرة.

التف رجلا السينيكا حول البلدة وذهبا إلى جهتها الأخرى، وبدآ برمي سهام السُماق وهما يقتربان، كي يظن أهل البلدة أنهما من رجالهم ويلعبان مثلهم. على هذا النحو اقتربا بمقدار كاف سمح لهما بقتل رجل كان يقف وحيداً. سلخا فروة رأسه، ثم أطلقا صيحة فروة الرأس وانسحبا مسرعين عبر الغابة حيث قال أحدهما للآخر وهما يركضان: «كن قوياً – كن قوياً».

Twitter: @ketab_n

ثم ما لبثا أن شاهدا السيوكغواغيْيونو قادمين على الخيول، غير أنهما تمكنا من الوصول إلى جدول ناضب للاختباء تحت ضفته، وهكذا عبر العدو من دون رؤيتهما.

في الصباح التالي خرجا من مخبئهما وانطلقا، غير أن العدو كان ما زال يراقب، ولم يمض وقت طويل حتى رأى الرجلان غبار الخيول خلفهما. اقترب رجال العدو منهما حتى كادوا أن يبلغوهما وبدأوا برميهما بالسهام، لكن رجلا السينيكا، بالتزامن مع ذلك، كانا قد صارا على مقربة من الكهف حيث يختبئ رجالهما، في رتلين متواجهين حول المدخل. وإذ اندفع المطارِدون إلى الداخل، تحرك رتلا السينيكا وأقفلا عليهم وقد قتل كل رجل من السيوكغواغيْيونو، أو أسر.

عاد السينيكا إلى بلاد الشيروكي، وبعد مضي شهر عادوا إلى ديارهم. وقال لهم الشيروكي فيما بعد: «نسمع بأن السيوكغواغيْيونو يعتبرونكم شعباً خطراً. فهم أنفسهم من السحرة وبوسعهم معرفة ما ستقدم عليه الشعوب الأخرى، لكنهم يعجزون عن معرفة ما سيقدم عليه السينيكا. إن سحر السينيكا لأقوى».

اقتبست من كورتن، «مخطوطة السينيكا».

Twitter: @ketab_n

حروب الشاوانو

كان الشاوانو من أكثر أعداء الشيروكي عناداً، وقد عرفهم هؤلاء باسم آني سَوانو غي، وهم كانوا قد رُحلوا في الأزمنة السالفة، في مطلع العام 1680، من مكان إقامتهم عند نهر سافانا (أو شاوانو)، بساوث كارولينا، فسكنوا منطقة نهر كامبيرلاند في وسط تنيسي وكنتاكي، ثم أبعدوا فيما بعد من هناك على يد القبائل الجنوبية الأقوى منهم، فأُجبروا على اللجوء إلى شمال أوهايو. وفي جميع الخرائط القديمة يبدو نهر كامبيرلاند وقد أشير إليه على أنه «نهر الشاوانو».

على الرغم من أن القبيلتين تبادلتا، وربما طوال فترات مديدة، علاقات الود، فإن الحال الاعتيادية بينهما كانت حال حرب مزمنة، وذلك منذ حقبة قديمة مبكرة، حتى نهاية الثورة[1]. وقد تأجّجت مشاعر العداء تلك من واقع التحالف المعتاد الدائم بين الشاوانو والكريك الذين مثلوا العدو الجنوبي المتوارث

(1) الثورة الأمريكية في وجه الملكية البريطانية (1775 - 1783) (م).

Twitter: @ketab_n

للشيروكي. في عام 1749، إلى ذلك، نجد مجموعة من الشاوانو القادمين من الشمال، ومعهم بضعة أشخاص من الشيروكي، يشقون طريقهم داخل بلاد الكريك، ثم يلتجئون بعدها إلى أوساط الشيروكي، حيث أدى الأمر إلى توريط الأخيرين بحرب جديدة مع جيرانهم الجنوبيين (جايمس أدير، «الهنود الأمريكيون»، ص. 276، 1775).

فرض الشاوانو احترامهم على الآخرين بفضل نزعتهم القتالية، وقد اكتسبوا سمعة في الشجاعة، هذه التي أظهروها في حروبهم الأخيرة مع البيض، فيما بات ينظر إليهم كقبيلة من السحرة نظراً لهجماتهم المفاجئة ولخدعهم الحربية الوافرة. وبسبب عمليات الأسر ومظاهر الزيجات المتبادلة في الأيام السالفة فإن ثمة مزيجاً فعلياً من دم الشاوانو في عروق الشيروكي.

بحسب ما ينقل هايْوُود[1]، فإن زعيماً معمراً من الشيروكي، يدعى زارع الذرة الصغير (النجار الصغير؟)[2]، أشار في عام 1772 إلى أن ترحيل الشاوانو من منطقة نهر سافانا سبق بزمن طويل عواقب الحرب الكارثية التي وقعت بينهم وبين عدد من

(1) جون هايوود (1762 - 1826)، مؤسس ورئيس الجمعية الأثرية في تنيسي، وقد ألف كتاب «التاريخ المدني والسياسي لولاية تنيسي» الذي نشر في عام 1823 (المؤلف).
(2) يلتبس اسم الزعيم المذكور بين «كورن بلانتر» و«كاربنتر» (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

القبائل المجاورة، وأنهم استوطنوا في منطقة نهر كامبيرلاند بإذن من سكانها. ثم اندلع فيما بعد نزاع بين القبيلتين، حيث قامت مجموعة قوية من الشيروكي باجتياح أراضي الشاوانو وهاجمتهم على نحو غادر وقتلت منهم مقتلة عظيمة. عاد الشاوانو وحصنوا أنفسهم لتبدأ حرب مديدة استمرت حتى جاء الشيكاسو لمساعدة الشيروكي، فأجبر الشاوانو بعد ذلك على التراجع التدريجي عن شمال أوهايو.

في وقت ترحيلهم الأخير، قرابة العام 1710، كان الفتى تشارلفيل موظفاً في محطة تجارية فرنسية أُسست للتعامل مع الشاوانو، وقد شغلت تلك المحطة رابية في الطرف الجنوبي من نهر كومبيرلاند، حيث تقوم اليوم مدينة ناشفيل. على مدى وقت طويل تعرض الشاوانو لضغوطات كبيرة من قبل أعدائهم جعلتهم ينسحبون إلى الشمال في مجموعات صغيرة طوال أعوام عدة، حتى لم يبق منهم سوى القليل، قرروا بعدئذ مغادرة البلاد على نحو نهائي. في شهر مارس بعث التجار بتشارلفيل ومعه كمية من الجلود، وقد اعتزم بعد أشهر عدة اللحاق بالشاوانو. في تلك الأثناء، وحين علم الشيكاسو بذلك الانتقال المرتقب، اتخذوا مواقعاً لهم عند طرفي نهر

Twitter: @ketab_n

كومبيرلاند، فوق نبع هاربث، مجهزين بالمراكب كي يمنعوا أي فرار عبر المياه، وقاموا، على نحو مفاجئ، بمهاجمة الشاوانو المنسحبين، وأوقعوا فيهم عدداً كبيراً من القتلى، كان التاجر واحداً منهم، وأخذوا كل جلودهم وبضائع تجارتهم وغيرها من الممتلكات التي كانت بحوزتهم. تشارلفيل لم يمت وعاش وروى القصة بعد سبعين سنة من حصولها. ولأن الحرب لم تنته قطّ ولم تعقد أي معاهدة سلام رسمية، فإن المحاربين الأعداء استمروا في مهاجمة بعضهم بعض كلما التقوا صدفة في حقول الصيد في كنتاكي، إلى أن قام الطرفان في النهاية، جراء الشعور المتبادل بالخوف، بإخلاء المنطقة، وقد ظلت هذه الأخيرة منطقة شاغرة إلى استوطنها البيض[1].

حسب الروايات التقليدية عند الشيروكي، فإن جماعة من الكريك كانت قد أقامت بالقرب من منبع نهر هِيواسي، فيما احتفظ الشيروكي بقراهم الرئيسة بالقرب من نهر تنيسي الصغير. كجيران قريبين، تظاهر الكريك بالصداقة، فيما كانوا، في الوقت عينه، يدعمون الشاوانو سراً. حين اكتشف الشيروكي تلك الخيانة، قاموا بتحين فرصة مشاركة الكريك بالرقص العظيم في إيتسا تي، أو إيتشوتا، عاصمة الشيروكي القديمة، لينقضوا

(1) هايوود، «تاريخ تنيسي الطبيعي والأصيل»، ص. 224–222، 1823 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

عليهم على نحو مفاجئ ويقتلوا جميع من كان حاضراً منهم تقريباً. عقب ذلك نشبت حرب هزم الكريك بنيجتها النهائية وأُجبروا على إخلاء جميع قراهم القريبة من نهر تنيسي[1].

يقول هايْوُود إن «زارع الذرة الصغير» كان قد شاهد فروات رؤوس الشاوانو حين أحضرت إلى بلدات الشيروكي. عندما كان صغيراً أخبره والده، الذي كان زعيماً أيضاً، كيف قاد في إحدى المرات مجموعة محاربة ضد الشاوانو وكيف عاد بعدد من فروات الرؤوس، وقد صادف ومجموعته حينها وهم عائدون عبر ممر في الجبال، مجموعة أخرى من محاربي الشيروكي، حيث ظنهم هؤلاء من الأعداء فانقضوا عليهم وقتلوا العديد منهم قبل أن يكتشفوا خطأهم.

يقدم سكولكرافت أيضاً الرواية التقليدية للشيروكي عن الحرب مع الشاوانو، وذلك كما سمعها على نحو غير مباشر من رواة بيض، لكنه وبصورة غير صحيحة يظهر القبيلة الأخيرة كأنها ما زالت تعيش قريباً من نهر سافانا. «انتصر الشيروكي بعد نزاع طويل ودموي ودفعوا قبيلة الشاوانو شمالاً. وظلّ هذا الحدث بالنسبة إليهم واحداً من أكثر إنجازاتهم مدعاة للفخر. «ماذا!»»،

(1) المصدر السابق نفسه، ص. 241 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

قال زعيم من الشيروكي طاعن في السن للسيد بارنويل[1] الذي كان قد اقترح تبادل الزواج مع البيض كسبيل أخير للمحافظة على العرق. «ماذا! هل سيفنى الشيروكي! هل سيفنى قاهرو الشاوانو! أبداً!»[2]

تقوم حرب القبائل في المبدأ على غزوات ثانوية منفصلة ومتعاقبة، وهي نادراً ما تبلغ نبل المعارك الجديرة بالاحترام وتكاد لا تأتي بأي اعتبار جاد سوى في مآلها الأخير. الروايات التقليدية، بالضرورة، تشاطرها المنحى المبتذل ذاته، وذلك عبر اعتمادها رواية النوادر بدل السرد التاريخي للأحداث، هذا الأخير الذي يتضمن تواريخ وأسماء. كما يسهم انقضاء الزمن باستمرار، في جعلها أكثر غموضاً.

في ناحية كارولينا تقدم الشاوانو في العادة عبر وادي نهر بيجون، وذلك كي يهاجموا قرى الشيروكي من الخلف، وكانت مجموعات صغيرة منهم تكمن هناك على نحو شبه دائم متحينة الفرص لسلخ فروة رأس ضلت طريقها.

(1) رجل من ساوث كارولينا يُدعى كولونيل بارنويل (كولونيل اسمه وليس لقباً عسكرياً) يقال إنه صاهر الشيروكي (م).

(2) سكولكرافت، «كتابات حول الإيروكوا»، ص. 160، 1847 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

في إحدى المرات كان عدد من صيادي الشيروكي مستلقين ليلاً حول نار معسكرهم حين سمعوا صيحة سنجاب طائر في الغابات - تسو-يو! تسو-يو! تسو-يو! وقد دعاهم حذرهم الدائم إلى الاشتباه في أن يكون ذلك إشارة من العدو، فقاموا جميعاً، إلا واحداً منهم، بالابتعاد عن النار على عجل وبالتخفي. إلى ذلك، فإن ذاك الذي لم يبتعد سخر من خوفهم ورمى في النار بعض الجذوع الكبيرة متحدياً، وتمدد على دثاره وشرع يغني. ثم سرعان ما سمع وقع أقدام شبحية تتقدم عبر الآجام وتقترب من النار شيئاً فشيئاً، إلى أن انقض عليه فجأة أحد الأعداء من الظلام وثبته على الأرض. غير أن الشيروكي كان يقظاً، وإذ رفع يديه تمكن من إمساك عدوه من ذراعيه ودفعه بجهد جبار إلى الخلف في النار. بقي الشاوانو المنبهر ملقى هناك للحظة متلوياً فوق الجمر، ثم نهض ووقف على رجليه وركض نحو الغابة مولولاً من الألم. علت ضحكة أطلقها رفاقه المختبئون في الأجمة، لكن وبرغم بقاء الشيروكي مراقباً لبعض الوقت فإن الأعداء لم يقدموا على هجمة أخرى، حيث جعلتهم جرأة الصياد على الأرجح يشتبهون بكمين ما.

Twitter: @ketab_n

في مناسبة أخرى سمعت مجموعة صغيرة من الصيادين في جبال سموكي كركرة ديك رومي (في روايته هذه الحكاية يقوم سويمر[1] بمحاكاة جيدة). وكان بعض الصيادين المتحمسين مع التوجه فوراً نحو الطريدة، لكن آخرين ممن كانوا أكثر احتراساً اشتبهوا بوجود خدعة ما ونصحوا باستطلاع المكان. وهكذا مضى صياد إلى الجانب الخلفي من السلسلة الجبلية، وخلال صعوده من الناحية الأخرى وجد رجلاً قابعاً في شجرة كبيرة يطلق صوت الكركرة ليستدرج الصيادين المتواجدين في المكان كي يقعوا بين أيدي مجموعة محاربة من الشاوانو تختبئ خلف بعض الآجام وسط المسافة بين الشجرة والمعسكر. زحف الشيروكي صاعداً من دون أن يراه أحد، ثم وثب فجأة وأطلق النار على الرجل القابع في الشجرة، صارخاً: «اقتلوهم جميعاً»، ثم انقض على الأعداء الذين ظنوا أن مجموعة قوية من الشيروكي كانت تهاجمهم، فنزلوا الجبل هاربين من دون أي محاولة للتصدي لهم.

قصة تقليدية أخرى من هذه الحروب هي تلك المتعلقة بـ تونا إِي، المحارب العظيم وساحر أوتساتي القديمة، في تنيسي. فقد استطاع في إحدى المعارك الصعبة ضد الشاوانو قرب البلدة المذكورة، التغلب

(1) رجل من الشيروكي يدعى أيون إيني، أو سويمر (سياح)، استقى منه موني بعض القصص والمرويات، وهناك مخطوطة تتضمن قصصاً حول الشيروكي تعرف بـ «مخطوطة سويمر» (م).

Twitter: @ketab_n

على الرجل الذي كان يواجهه وطعنه في ذراعيه. ثم أخرج الحبال من حفرة وقيّد وثاق سجينه واقتاده على هذا النحو إلى إيتسا تي ليلاقي الموت على أيدي المرأتين، وذلك إثر عمليات تعذيب كسرت شجاعة أوتسا تي نفسه فتوسل المرأتين أن تقتلا السجين على الفور.

بعد انكفائهم إلى أوهايو العليا استُقبِل الشاوانو في حماية هنود ديلاوير[1] وحلفائهم. وإذ لاقوا الدعم على هذا النحو فقد شجعهم الأمر على استئناف الحرب ضد الشيروكي بحماوة أكبر. وأثبت هؤلاء مع ذلك أنهم أكثر من أهل للمواجهة مع أعدائهم، حيث طاردوهم وصولاً إلى قراهم في غرب بنسلفانيا، وقَتلوا هناك مصادفة عدداً من هنود ديلاوير الذين كانوا يحتلون البلاد بمشاركة الشاوانو. وهذا أدخل الشيروكي في حرب مع هنود ديلاوير الأقوياء استمرت حتى عام 1768 لتبلغ نهايتها حينذاك بطلب من الشيروكي، الذين عقدوا في الوقت عينه اتفاقية صداقة مع الإيروكوا. الشاوانو، وكانوا قد تركوا هكذا بمفردهم، لا بل أُدينوا، فوق ذلك، بصراحة من قبل أصدقائهم هنود الديلاوير على أنهم سبباً للمشكلة كلها، ما عادت لهم الجرأة على متابعة الحرب وأُجبروا على عقد سلام نهائي[2].

(1) ولاية ديلاوير الأمريكية (م).

(2) جون غوتليب هيكويلدر، «الأمم الهندية»، ص. 88، طبعة عام 1876 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

الغارة على تيكوالي تسي

آخر القادة البارزين لمجموعات الشاوانو الغازية كان زعيماً يعرفه الشيروكي باسم تاوا لي أوكوانون تي، «الصوفان[1] الموصول به»، وذلك نظراً لوجود بقعة حمراء على خده تبدو كقطعة من صوفان (تاوا لي) نابتة في لحمه.

سمع الناس في بلدة تيكوالي تسي، في توكاسيجي، شائعات عن قدوم مجموعة محاربة من الشمال تحت قيادته واتخاذها مكمناً في مكان ما بالجوار. التجأ ساحر الشيروكي الذي كان يدعى إيتاوا ها- تسيستاتلا سكي، «مشعل الأيكة الميتة»، إلى فنونه السحرية ووجد أن الشاوانو كانوا يكمنون إلى جانب الطريق عند الجهة الشمالية للنهر وعلى مسافة قريبة فوق البلدة. بناءً على نصيحته استعدت مجموعة محاربة للذهاب صعوداً إلى الجهة الجنوبية فتهاجم العدو من الخلف. لكن قامت قلة من الأفراد المتهورين في المجموعة بمخالفة توجيهاته ومضوا بلا وجل،

(1) الصوفان: مادة تؤخذ من فطر الصوفان تُقدح بها النار (م).

Twitter: @ketab_n

صاعدين الطريق في الجهة الشمالية حتى بلغوا ديب كريك[1]، حيث تمكن الشاوانو الذين كانوا مختبئين في مخاضة[2] الجدول من اصطيادهم «كسمك في شرك» وقتلوهم جميعاً تقريباً.

سمع أصدقاؤهم عند الجهة الأخرى من النهر إطلاق النار، وإذ عبروا النهر فوق «ديب كريك» بلغوا مؤخرة الشاوانو وهاجموهم مُنزلين بهم عدداً من القتلى، ومُجبرين الآخرين على الانكفاء نحو جبال سموكي على وقع مطاردة الشيروكي.

أخذ الغزاة معهم اثنين من الشيروكي كأسيرين، ولم يتمكن الأخيران من مواصلة المسير معهم في فرارهم السريع، فقام الآسرون برميهما، وهما مقيدان، من أعلى جرف. وكان معهم ساحر شيخ وجد نفسه عاجزاً عن مجاراتهم في مسيرهم السريع، فجلس من تلقاء نفسه مسنداً ظهره إلى شجرة في الموقع عينه بانتظار الموت. حين وصل المُطَارِدون قطعوا رأسه بواسطة فأس ورموا بجسده من الجرف نفسه الذي اكتسب اسمه من هذه الواقعة. تابع الشاوانو انكفاءهم، فيما كان الشيروكي قريبين خلفهم، إلى أن اجتازوا سلسلة الجبال الرئيسة عبر ممر في أسفل قبة كلينغمان. هنا أوقف الشيروكي المطاردة وعادوا إلى ديارهم.

(1) الجدول العميق (م).
(2) موضع من النهر يسهل خوضه (م).

Twitter: @ketab_n

اجتياح الشاوانو الأخير

بعد مضي عام ربما على غزوة تيكاوالي تسي، قام الشاوانو مجدداً، وبإمرة القائد إياه، بالنزول إلى قرية كانوغا المكشوفة، عند نهر بيجون، وغنموا امرأة وطفلين وجدوهم قرب القرية يجمعون التوت. من دون الانتظار للقيام بهجوم، انسحب الشاوانو بسرعة ومعهم أسراهم. أرسل أهل كانوغا يطلبون العون من القرى الجنوبية الأبعد، فشُكلت على الفور مجموعة مُحاربة قوية من أجل مطاردة العدو وتحرير الأسرى. في هذا الوقت كان الشاوانو قد أمضوا أياماً عدة في مسيرهم وكان ينبغي للشيروكي سلوك طريق مختصرة عبر الجبال للحاق بهم. واستدعي ساحر بارز من بلدة هِيْواسي يدعى كا لانو، «الغُداف»[1]، كي يكتشف من خلال فنونه السحرية الاتجاه الذي سلكه الشاوانو والمسافة التي قطعوها. بعد أن دعا الزعماء للاجتماع طلب الساحر منهم أن يملأوا غليوناً بالتبغ ويدخنوا وأنه سوف يأتي بالمعلومات قبل نفاد التبغ في ذلك الغليون. تحلقوا حول النار وأشعلوا الغليون، في

(1) غراب أسحم أو أسود (م).

Twitter: @ketab_n

حين مضى هو إلى الغابة. بعدها بوقت قليل سمعوا نعيب بوم، ثم بعد فاصل قصير، سمعوا النعيب ثانية، وفي الصباح التالي ظهر الساحر قادماً من بين الأشجار وذلك قبل نفاد حشوة التبغ الأولى في الغليون.

أفادهم في أنه تعقب الشاوانو إلى معسكرهم وأن هؤلاء باتوا على بُعد سبعة أيام. انطلق الشيروكي على الفور حسب ما أشار عليهم الغُداف، وبلغوا المكان بعد سبعة أيام ووجدوا كل علامات المعسكر، غير أن العدو كان قد رحل. من جديد ومرة أخرى مضى الساحر في أرجاء البلاد كي يتحرى أثرهم بأسلوبه الذي تكتنفه الأسرار، وقام الشيروكي بعد ذلك بتتبع الطريق التي أشار عليهم بتتبعها. في عودته للمرة الثالثة أفادهم أن العدو توقف قرب النهر العظيم (نهر أوهايو)، ثم ما لبث أن جاء بالأخبار التي تُفيد بأن العدو يهمون بعبور النهر. أسرع الشيروكي نحو النهر، لكنهم إذ وصلوا كان الشاوانو قد باتوا في الجهة الأخرى. بحث المُطارِدون في أرجاء المكان إلى أن وجدوا موضعاً مناسباً في مجرى النهر، ثم انتظروا حلول الظلام واستعدوا للعبور، واستخدموا الجذوع كأطواف وخاضوا في التيار على نحو متعرج، فنجحوا بذلك، وتمكنوا من اجتياز النهر قبيل الفجر بغفلة عن العدو.

Twitter: @ketab_n

كانت الطريق حينذاك قد غدت واضحة، وبسلوكها سرعان ما بلغوا المعسكر، حيث بدا الأخير نائماً ومن دون حراسة كون الشاوانو، الذين اعتقدوا أنهم بأمان الآن في بلادهم، كانوا قد أهملوا نشر الحراس.

اندفع الشيروكي - بسكاكينهم وفؤوس التَمْهوك- إلى المعسكر منقضين على أعدائهم النائمين، فقتلوا عدداً منهم قبل أن يتمكنوا من الاستيقاظ وامتشاق أسلحتهم للدفاع عن أنفسهم. ثم قامت مواجهة قصيرة يائسة، غير أن الخسارة كانت قد لحقت بالشاوانو، إذ سقط قائدهم في طليعة من قُتِلوا، وما هي إلا لحظات قليلة حتى انكسرت شوكتهم وولوا الأدبار، كل في حال سبيله. حرر الشيروكي الأسرى الذين وجدوهم مقيدين بالأشجار، وبعد أن سلخوا فروات رؤوس الشاوانو المقتولين وأخذوا أسلحتهم ومعداتهم الأخرى، مضوا عائدين إلى بلادهم.

Twitter: @ketab_n

محاربو التشيلهُوْوِي الزائفون

شكل بعض محاربي بلدة تشيلهُوْوي، عند نهر تنيسي الصغير (ليتل تنيسي)، مجموعة قتالية، على ما قالوا، وذلك للذهاب ومواجهة الشاوانو. انطلقوا في اتجاه الشمال عبر طريق الحرب العظيمة، لكنهم حين بلغوا نهر بيجون غيروا مسارهم، وبدلاً من استمرارهم في التقدم إلى بلاد الشاوانو، مضوا صعوداً مع النهر ووصلوا إلى مؤخرة بلدة كوْوِي، إحدى القرى الوسطية لقبيلتهم ذاتها. وهناك تخفوا على مقربة من الطريق إلى أن مر في المكان، على نحو مطمئن، ثلاثة أو أربعة أشخاص من البلدة، فانقضوا عليهم وقتلوهم وسلخوا فروات رؤوسهم وأخذوا بندقية تعود لرجل يدعى غونسكالي سكي، ثم أسرعوا عائدين إلى ديارهم عبر الطريق المتعرّجة ذاتها التي تؤدي إلى تشيلهُوْوِي، حيث عرضوا فروات الرؤوس الطازجة والبندقية، ورووا كيف واجهوا الشاوانو في الشمال وهزموهم من غير أن يُقتل منهم رجل واحد.

Twitter: @ketab_n

والتزاماً بالتقاليد، أجريت الاستعدادات على الفور لإقامة رقصة فروات رؤوس كبرى احتفاءً بالنصر على الشاوانو. أقيمت الرقصة في دار البلدة وحضرها جميع أهل البلدة، وفيما كانت النساء يرقصن بفروات الرؤوس والبندقية، جرى تمجيد مآثر المحاربين العائدين. والذي حصل أن من بين هؤلاء المشاهدين كان ثمة زائر من كوْوي، هو صانع بنادق[1]، وقد انتبه على نحو خاص إلى البندقية وعرف في الحال أنها البندقية التي كان قد زودها بمقبض خشبي لصاحبها غونسكالي سكي، هناك في ديارهم. لم يقل الرجل شيئاً، لكنه تساءل بإلحاح في نفسه عن كيفية وصول تلك البندقية إلى أيدي الشاوانو.

انتهت رقصة فروات الرؤوس، وجرى حسب التقاليد تحديد رقصة أخرى تقام بعد سبعة أيام لإعطاء المحاربين الآخرين فرصة ثانية تُمجد فيها مآثرهم الحربية. عاد صانع البنادق، الذي يُدعى غولساديهي، إلى دياره في كُوْوِي وهناك سمع للمرة الأولى كيف باغتت مجموعة محاربة من الشاوانو بعض أهالي البلدة، فقتلت عدداً منهم، وسلخت فروات رؤوسهم واستولت على بندقية كانت بحوزتهم. حينذاك فهم كل شيء، وأخبر الزعيم بأن الأذية تلك اقترفها بعض رجال التشيلهُووي المخادعين ولم

(1) هو بالتحديد الفني الذي يصنع مقابض خشبية للبنادق (م).

Twitter: @ketab_n

تقترفها قبيلة معادية. بدا الأمر أكبر من أن يصدق، وقال الزعيم إن ذلك غير ممكن، إلى أن أوضح تاجر البنادق مسألة تعرفه على البندقية التي كان قد جهزها بنفسه للرجل المقتول. اقتنعوا في النهاية بصحة روايته، وباتت كُوْوي كلها تواقة للانتقام.

تقرر إرسال عشرة من أشجع محاربيهم، تحت قيادة صانع البنادق، إلى الرقصة المقبلة في تشيلهُوْوِي، وذلك كي ينفذ هؤلاء الانتقام على طريقتهم. تقدم المتطوعون على الفور للقيام بالمهمة. انطلقوا في الوقت المناسب وبلغوا تشيلهُوْوِي مساء اليوم الذي كانت تعقد فيه الرقصة. حين عبروا الجدول في أسفل البلدة التقوا امرأة جاءت تملأ الماء ونفذوا أول انتقام لهم عبر قتلها. كان الرجال والنساء والأطفال مجتمعين في دار البلدة، لكن رجال كُوْوي قاموا بالتخفي بالخارج ومكثوا ينتظرون.

اقتضت أصول تلك الرقصة أن يقوم كل محارب بدوره برواية قصة تتضمن بعض مآثره ضد العدو، جاعلاً كلماته تلك في شكل أغنية يهمس بها في البداية لقارع الطبول، هذا الأخير الذي يبدأ بمرافقته في الغناء وبقرع طبله. الأمر ذاك في العادة كان يؤدى على نحو جدي، لكن في بعض المرات، وعلى سبيل التسلية، كان يقوم أحدهم بتمثيل دور مهرج أو يشرع بأداء

Twitter: @ketab_n

الغناء على نحو هزلي فيصبح إمساك الناس جميعاً عن الضحك أمراً مستحيلاً. تقدم إلى الحلقة رجل إثر آخر وأخذ كل واحد منهم يغني مآثر أفعاله في وجه أعداء قبيلته. في النهاية قام أحد أعضاء المجموعة المحاربة الأخيرة ونهض عن مقعده، وبعد أن همس لقارع الطبول بدأ ينشد قصة ذهابه ورفاقه إلى كُوْوِي وقيامهم بانتزاع فروات الرؤوس وحصولهم على البندقية، وقد أنشد ذلك وهو يرقص. بدأ الزعيم والناس، الذين لم يعرفوا شيئاً عن غدر هؤلاء، بالضحك من صميم قلوبهم على ما اعتبروه مزحة عظيمة.

لكن إذ ذاك، أقدم صانع البنادق، الذي كان ينتظر مع رجال كُوْوِي في الخارج، على خلع مئزره واندفع عارياً إلى داخل دار البلدة. انثنى فوق قارع الطبل - الذي كان واحداً من الخونة، لكنه لم يدرك هوية غولساديهي - وأعطاه كلماته، ثم استقام بهامته وبدأ يغني: «هِيْ! اسألوا من فعل هذا!»، وأخذ يرقص في حلقة ويُصدر إيماءات مُهينة في وجه كل الحاضرين هناك. كانت الأغنية سريعة وكان قرع الطبّال مفعماً بالحماسة.

أنهى دورة كاملة وعاد وانثنى فوق الطبال، ثم استقام بهامته وغنى: «يو! لقد قتلت امرأة حامل عند المخاضة وألقيت

Twitter: @ketab_n

جسدها في النهر!»، أخذت الدهشة تتملك بعض الرجال، لكن الزعيم قال: «إنه يمزح فحسب، أكملوا الرقصة»، والطبال يقرع بنشاط.

شرع في دورة أخرى وانثنى فوق الطبال من جديد وراح يغني: «لقد ظننا أن أعداءنا كانوا من الشمال، غير أننا تعقبناهم ووجدناهم هنا!» حينها أدرك الطبال ما معنى كل ذلك وأخذ يقرع ببطء شديد وبدأ القلق يساور الحاضرين. ثم، ومن دون أن ينتظر الطبال، راح غولساديهي يغني: «كُوْوِي سوف تخوض مباريات في الكرة معكم» - فأدرك الجميع أن ذلك تحد للنزال - ثم قال بغضب: «لكن إن أردتم القتال الآن فإن رجالي مستعدون للموت هنا!».

بذلك أشار بيده ملوحاً وغادر دار البلدة. نظر كل واحد من الراقصين بالآخر بارتباك ونهض بعضهم كي يغادر. دعاهم الزعيم، الذي لم يسعه استيعاب الأمر، للاستمرار في الرقص لكن من دون فائدة. قاموا بمغادرة دار البلدة، وحين صاروا في الخارج التقوا رجال كُوْوِي واقفين باستعداد مع أسلحتهم وفؤوسهم في أحزمتهم. لم يتفوه أي من الطرفين بكلمة، إذ أنهم كانوا لا يزالون على أرض صديقة، لكن الجميع أدرك البلاء المنتظر.

Twitter: @ketab_n

عاد رجال كُـوْوِي إلى ديارهم وشكلوا مجموعة قوية من المحاربين تضم رجالاً من بلدتهم وآخرين من بلدات المنطقة الوسطى للذهاب والانتقام من تشيلهُوْوِي ومن كـوْوَا هي، الواقعة تحتها، والتي كان لها علاقة أيضاً بالغزوة. مضوا نازلين إلى تنيسي وعبروا فوق الجبال، لكنهم ما إن بلغوا الجهة الأخرى حتى وجدوا أن أعداءهم قد غادورا ديارهم وذهبوا للالتجاء إلى قرى أبعد أو إلى الشاوانو المعاديين في الشمال.

Twitter: @ketab_n

بلدة كُوْوِي

كُوْوِي، أو بالأصح كاوي بي، واختصاراً كاوي ، كان اسم قريتين من قرى الشيروكي، وقد وُجدت إحداهما في عام 1755 عند واحد من روافد نهر كِيْوُوِي، في أعلى ساوث كارولينا، فيما قامت الثانية والأكثر أهمية عند نهر تنيسي الصغير، عند مصب جدول كُوْوِي، على بعد عشرة أميال في أسفل المنطقة المعروفة اليوم بفرانكلين، في نورث كارولينا. وقد دمّرت هذه على أيدي الأمريكيين في عام 1776 حين كانت تضم آنذاك نحو مائة منزل، لكنها بُنيت من جديد وظلت آهلة بالسكان حتى إعلان الضم في عام 1819[1]. الاسم عصي على الترجمة، غير أنه قد يَعني «مكان عشيرة الغزال» (آني كاوي).

كانت تلك البلدة واحدة من أقدم بلدات الشيروكي وأكبرها، وحين قام وافورد بزيارتها عندما كان فتى وجد الطريق المؤدية

(1) حين ضمت فلوريدا ومناطق الهنود الجنوبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية (م).

Twitter: @ketab_n

إليها، في بعض المواضع، خربة تتخللها الحفر العميقة، حيث أخذت قدماه تطآن الأرض من الجهتين، على الرغم من أنه كان راكباً ظهر حصان.

ثمة قصة، يرويها وافورد كواقعة حقيقية، عن واحد من الشاوانو كان سجيناً فيها، لكنه تمكن من الفرار إلى أبناء شعبه في الشمال، وبعد أن حل السلام بين القبيلتين عاد الرجل متجولاً في نواحيها برحلة صيد. وفيما كان واقفاً بأعلى تل مشرف على الوادي شاهد بعض أفراد الشيروكي على التل المواجه، فناداهم قائلاً: «أما زلتم تملكون كُوْوي؟». فأجابوه صائحين: «أجل، ما زلنا نملكها». ثم جاءهم الجواب من رجل الشاوانو، الذي أراد تشجيعهم على وقف بيع أراضيهم: «نعم، إنها أفضل قرى الشيروكي. إنها لبلاد طيبة، فلا تفرطوا بها».

Twitter: @ketab_n

القبائل الشرقية

إلى جانب الايروكوا والشاوانو ، يذكر الشيروكي أيضاً قبائل ديلاوير وتوسكارورا، وكاتاوبا، وتشيرو، ويقولون إنها قبائل سكنت الشرق أو الشمال وكان لهم علاقات معها.

يطلق الشيروكي على قبائل ديلاوير اسم أناكوان كي، مفرده أكوان كي، وهو اشتقاق تكوّن – بناء على التعديلات اللفظية المعتادة عند الشيروكي – من عبارة واباناك كي، «الشرقيين»، الاسم العام الذي تطلقه قبائل ديلاوير ومن تحدر منها، على نفسها.

في المرويات الأكثر قدماً عند قبائل ديلاوير يُعرف الشيروكي باسم تاليغا، أو تاليغي، أو تاليغي–وي، إلخ[1]. وهم، في مرويات أحدث لقبائل ديلاوير، يُعرفون باسم كيتو هْوا، وهنا مرة أخرى

(1) دانييل ج. بريتون، «الليناب وأساطيرهم»، ص. 130 وفي مواضع أخرى، 1885، هينري ر. سكولكرافت، «كتابات حول الايروكوا»، ص. 147، 305 وفي مواضع أخرى، 1847، جون غ هيكويلدر، «الأمم الهندية»، ص ص. 50–47، طبعة عام 1876 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

نجد هاتين القبيلتين في حالة حرب، يُحمل جيرانهما مسؤوليتها.

حسب ما تروي قبائل ديلاوير فقد أقدم الإيروكوا، في واحدة من غزواتهم في الجنوب، على قتل أحد رجال الشيروكي في الغابة وتعمدوا ترك هراوة حرب تعود للديلاوير قرب جسده كي يبدو قتله وكأنه اقترف على أيدي رجال من القبيلة المذكورة. عثر الشيروكي على الجسد وعلى الهراوة، فافترضوا، على نحو بديهي، أن الديلاوير هم الذين ارتكبوا الجريمة فقاموا بمفاجأتهم بهجوم، وكانت النتيجة حرباً طويلة دامية بين القبيلتين[1]. في ذلك الوقت، أي قرابة نهاية القرن السابع عشر، بدا أن مجموعة من الشيروكي على الأقل، كانت تعيش قرب مياه أوهايو العليا، حيث جردت قبائل ديلاوير غارات متتابعة عليها، إلى أن تمكنت في النهاية من طرد أفرادها من المنطقة وانتزاعها منهم قرابة العام 1708 [2]. منذ قرن مضى كانت قبائل ديلاوير تروي كيف كان محاربوها يتنكرون أحياناً بهيآت الشيروكي ويختلطون معهم في رقصاتهم الليلية حتى تحين لهم فرصة تنفيذ هجوم مباغت عليهم، ثم الانسحاب قبل أن يصحو عدوهم من المفاجأة.

(1) هيكويلدر، المصدر السابق، ص. 54 (المؤلف).
(2) جورج هينري لوسكيل، «تاريخ البعثة المورافية»، ص ص. 127–124، لندن، 1794 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

فيما بعد بدا أن سلاماً كان قد حل، وذلك إلى أن عاودت الحرب اندلاعها إثر تحرك قام به الشاوانو الذين التجأوا إلى أوساط الديلاوير حين أخرجهم الشيروكي من موطنهم القديم عند نهر كومبيرلاند. فالشاوانو إذ ذاك، حين شعروا بالأمان جراء تحالفهم الجديد، استأنفوا غاراتهم ضد الشيروكي الذين ردوا بمطاردتهم في نواحي بلاد الديلاوير وقتلوا العديد من شعب الديلاوير عن طريق الخطأ. وقد أثار الأمر هذا الشعب، الذي كان قد أثاره قبل ذلك منظر فروات رؤوس الشيروكي والأسرى الذين عبروا في بلاده مع الإيروكوا، فكانت النتيجة حرباً أخرى استمرت حتى قام الشيروكي، المنهكين من محاربة هذا الكم من الأعداء، بتقديم مبادرات للسلام، في عام 1768، حيث أطروا على قبائل ديلاوير بلقب «السَلَف»، هذا اللقب الفخري الذي نادتهم به مختلف القبائل الألغونكينية[1]. وقد قامت قبائل ديلاوير حينها بتأنيب الشاوانو باعتبارهم سبباً للاضطراب، ونصحوهم في أن يهدأوا، حيث وجد الأخيرون سعادة في الأمر بعد أن تُركوا يخوضون المعارك وحدهم. وقام الشيروكي في الوقت عينه بعقد صلح مع الإيروكوا، فبلغت الحرب المديدة مع قبائل الشمال

(1) من سكان أمريكا الشمالية الأصليين وهم من الأنسباء القريبين لقبيلتي أوداوا وأوجيبوي، حيث كونوا معهما جماعة أكبر تدعى أنيسينابي. أطلقوا على أنفسهم اسم «أومامي ويني والك» (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

نهايتها. وهكذا فإن مشاعر الصداقة التي أُسست ترسخت في عام 1779، حين بعث الشيروكي برسالة عزاء في موت زعيم قبائل ديلاوير، العيون البيضاء[1].

وما زالت التوسكاروراء، القبيلة التي كانت تحكم شرق نورث كارولينا فيما مضى، تُذكر باسم آني – سكالا لي، وهي، وفقاً لهذا، يشار إليها في رقصة الريش التي يؤديها الشيروكي، حيث يُفترض أن يكون بعض ممثلي الرقصة المذكورة زواراً غرباء من قبائل أخرى.

مع نزوح غالبية التوسكاروراء من كارولينا إلى بلاد الإيروكوا قرابة العام 1713، وذلك عقب الحرب الكارثية مع البيض، فقد امحت من ذاكرتهم كل إشارة للهنود الجنوبيين. ويفيد الضوء الخافت الذي يلقيه التاريخ على علاقاتهما المتبادلة، بأن القبيلتين ظلتا في حالة حرب شبه دائمة ضد بعضهما بعض. وحين دُعي الشيروكي من قبل البيض في إحدى المرات، وبعد أن عقدوا سلاماً مع بعض جيرانهم الآخرين، إلى عقد سلام مماثل مع التوسكاروراء، رفضوا ذلك، تحت ذريعة أنه من الأفضل ترك الأمور على حالها بدل أن يعقد السلام مع التوسكاروراء فيصبحوا

(1) هيكويلدر، «القبائل الهندية»، ص ص. 89–88، 1876 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

حينذاك مضطرين للبحث عن أعداء جدد كي يقاتلوهم، نظراً لتعذر عيشهم من دون حرب.

لسنوات عدة قبل اندلاع حرب التوسكارورا في عام 1711، أوقف الشيروكي غاراتهم ضد تلك القبيلة، وقد اعتبر الأمر إشارة لانشغالهم المفترض في مواجهة بعض الشعوب الأخرى غرب الجبال، على الأرجح الشاوانو، حيث قاموا بطرد هؤلاء من تنيسي قرابة الفترة عينها[1]. في حرب 1711- 1713 ساند الشيروكي البيض في مواجهة التوسكارورا. وفي عام 1731 هدد الشيروكي من جديد بشن حرب ضد فلول القبيلة المذكورة الذين استمروا في السكن في كارولينا الشمالية، وقد أُكرهت الحكومة الإستعمارية على التدخل[2].

قبيلة تشيرو، أو سارا، التي انتقلت في أزمنة مختلفة من أعالي ساوث كارولينا إلى التخوم الجنوبية لفرجينيا، تذكر أيضاً باسم آني - سُوْوا لي، أو آني - سُوْوا لا، وهذا ما يوافق العبارة الإسبانية زوالا التي وردت في تأريخ دو سوتو[3]، وسوالا، أو سوالي، التي

(1) أنظر هايوود، «تاريخ تنيسي الطبيعي والأبوريجيناليي»، ص ص. 220، 224، 237، 1823 (المؤلف).

(2) المدونات الإستعمارية لنورث كارولينا، الجزء الثالث، ص ص. 153، 202، 345، 369، 393، 1886 (المؤلف).

(3) هيرناندو دي سوتو: رحالة إسباني استكشف لنورث كارولينا في القرن السادس عشر (1539 -1543) (م).

Twitter: @ketab_n

ذكرها ليديرير[1]. يذكر الشيروكي تلك القبيلة في كونها عاشت إلى شرق سلسلة الجبال الزرقاء، وقد اخترقت الطريق إلى بلادها المعبر الجبلي عند منبع نهر سوانانُوَا، شرقي أشفيل. اسم النهر والمعبر الجبلي هو تحريف لعبارة سُوْوَا لي - نونا هي، «طريق سوْوَا لي»، في لغة الشيروكي. لأنها كانت قبيلة ميالة للحرب، فقد تناقصت أعداد أبنائها جراء النزاعات مع الحكومات الاستعمارية ومع الإيروكوا الذين أُكرِهوا على التعاون مع الكاتاوبا، حيث احتفظوا بين الأخيرين بلغتهم المتميزة حتى أواخر عام 1743 [2].

يُعرف الكاتاوبا من قبل الشيروكي باسم آني تا غوا، مفرده آتا غوا، ما يشكل محاولة للشيروكي لتطويع الاسم الذي تعرف به تلك القبيلة. كان هؤلاء جيران الشيروكي المباشرين من الشرق ومن الجنوب الشرقي، حيث قامت قراهم الرئيسة حول نهر حمل اسمهم، وامتد ضمن حدود ساوث كارولينا، وقد احتلت قبيلتهم الموقع القيادي بين جميع القبائل إلى الشرق من بلاد الشيروكي باستثناء قبيلة توسكارورا. في أولى قرى كارولينا

(1) جون ليديرير: مستكشف وطبيب ألماني انطلق في مهامه وجولاته في كارولينا بالقرن السابع عشر، وقد أنجز قرابة العام 1670 وضع خرائط للولاية المذكورة استندت على استكشافاته (م).

(2) موني، قبائل سايوْوَان الشرقية (نشرة مكتب الإبحاث الإثنية)، ص ص. 56، 61، 1894 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

الجنوبية قُدر عدد أفراد تلك القبيلة بنحو سبعة آلاف شخص، غير أن تناقصهم كان سريعاً، وقد قلصت الحروب والأمراض عديدهم إلى ما لا يزيد عن خمسمئة شخص في عام 1775، وهذا يتضمن فلول التشيرو التي ائتلفت معهم وغيرها من القبائل الأصغر الأخرى. في الوقت الحالي هناك ربما مئة شخص ما زالوا باقين في محمية صغيرة قرب موقع بلداتهم القديمة. تبدو بعض الأسماء المحلية في أراضي الشيروكي القديمة وكأنها تشير إلى حضور الكاتاوبا السابق، وذلك على الرغم من عدم وجود أي مرويات تتحدث عن قرى للكاتاوبا ضمن تلك الحدود. من هذه الأسماء يمكن ذكر جدول توكوَا في شمال شرق جورجيا، ونهر توكوا في شمال – وسط جورجيا، الاسمان المشتقان من عبارة تاغوا هي، «مكان تاكاوبا»، في لغة الشيروكي. تا غواديهي، «قاتل كاتاوبا»، هو اسم قديم من أسماء الشيروكي.

توارثت القبيلتان العداء وما زالت المشاعر المتبادلة بينهما إلى اليوم مشاعر مريرة كما كانت منذ مائة عام. الحالة الوحيدة ربما، التي تسجل ائتلافهما في عمل مشترك جاءت في حرب 1711–1713 عندما تعاونتا مع المستعمرين ضد التوسكارورا. ادعى الشيروكي، حسب ما يقول الكولونيل توماس الأخير، أنهم سبق واحتلوا كل

Twitter: @ketab_n

البلاد من منبع نهر كاتاوبا، إلى أسفل ما يعرف اليوم بـ مورغانتون، وذلك إلى أن نضب الصيد، فقاموا بالانسحاب إلى غرب السلسلة الزرقاء، ثم قاموا فيما بعد بـ «إقراض» الأراضي الشرقية إلى الكاتاوبا. الأمر يوافق تماماً مرويات الكاتاوبا التي دونها سكولكرافت، حيث أن هؤلاء بحسب المرويات المذكورة - والذين يُقدمون فيها خطأً على أنهم، بالمقارنة مع غيرهم، مهاجرون أتوا حديثاً من الشمال - ما إن بلغوا نهر كاتاوبا، حتى وجدوا هناك الشيروكي يعترضون تقدمهم، إذ ادعى هؤلاء أنهم المالكون الأصليون للبلاد. جرت معركة سقط خلالها عدد لا يُصدق من القتلى في صفوف الطرفين، لكن النتيجة لم تحسم برغم أرجحية الكاتاوبا نظراً لامتلاكهم بنادق، فيما لم يكن بحوزة أعدائهم سوى الأسلحة الهندية. وكانت الاستعدادات قائمة لاستئناف القتال حين قدم الشيروكي عرضاً يقتضي باعتماد النهر حدوداً فاصلة، مفسحين المجال للكاتاوبا في الاستيطان شرقاً بأي مكان يريدونه. جرى قبول العرض المذكور وكان التوصل أخيراً إلى اتفاقية يحتل الكاتاوبا بموجبها البلاد الواقعة شرق النهر ويأخذ الشيروكي البلاد غرب نهر برود[1]، فيما تبقى المنطقة بين المجريين المائيين بمثابة منطقة محايدة. أكوام من الحجارة رُصفت في أرض المعركة لإحياء ذكرى المعاهدة، وقد أطلق الكاتاوبا على نهر برود

(1) Broad River، النهر الواسع (م).

Twitter: @ketab_n

منذ ذلك الحين اسم إسوايو هوبيداي (نهر الخط)، وبقيت البلاد الواقعة إلى شرقه، بلاداً خالية[1]. حقيقة امتلاك طرف واحد للبنادق في تلك الأحداث يُرجع هذه الأخيرة إلى حقبة تاريخية مبكرة.

قام الكاتاوبا بدعم البيض في مواجهة الشيروكي في حرب عام 1760 وفي مواجهات الثورة[2] اللاحقة. مئة محارب منهم شاركوا في الحرب الأولى وهؤلاء شكلوا تقريباً مجمل القدرة المحاربة لقبيلتهم، وقد قتل بعضهم، ورافق عدد أصغر منهم قوى ويليامسون في عام 1776[3].

في المعركة التي خيضت بقيادة ويليامسون بالقرب من موقع فرانكلين الحالي، نورث كارولينا، التبس الأمر على الشيروكي، حسب مروية أوردها وافورد، فظنوا أن حلفاء الجنود من الكاتاوبا هم من محاربي الشيروكي أنفسهم، وقد خاض الأخيرون القتال لبعض الوقت بناءً على ظنهم ذاك قبل أن يلاحظوا أذيال الغزلان التي يضعها الكاتاوبا في شعرهم كي لا يقع البيض في الخطأ ذاته. في تلك المواجهة التي كانت واحدة من أكثر معارك الهنود دموية في الثورة الأمريكية، زعم الشيروكي أنهم قاموا في الواقع بدحر

(1) Catawba MS from South Carolina official archives. Schoolcraft، Indian Tribes، III، pp. 293 –294، 1853.

(2) الثورة الأمريكية في وجه التاج البريطاني (1775–1783) (م).

(3) المصدر نفسه، ص. 294، 1853 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

الجنود والكاتاوبا حلفائهم قبل أن تنفد ذخائرهم ويضطروا على إثر ذلك إلى الإنسحاب. وكان قائد الشيروكي زعيم بارز يدعى تساني (جون).

زهاء العام 1840 انتقلت قبيلة كاتاوبا بأسرها تقريباً من ساوث كارولينا والتحقت بقطاع الشيروكي الشرقي. لكن القبيلة المذكورة وبفعل الضغائن القبلية، لم تمكث هناك سوى فترة قصيرة، إذ عادت بعد ذلك إلى موطنها السابق الذي بدا أنه ينتمي إلى مكان آخر.

اسمان قبليان آخران (إسنادهما مشكوك فيه) هما «آني – ساني» و«آني – ساواها ني»، ينتميان إلى شعوب قيل أنها تقطن في ناحية الشمال، وقد يقصد بهما، ربما، الشاوانو أو شاوني، وعلى نحو أدق آني – ساوانو غي.

وكانت قبيلة آني – غيلي كما قيل جارة لقبيلة «آنين تسي»، أو ناتشيز، وهو الاسم الذي يمثل ربما تحوير الشيروكي لعبارة كونغاري.

Twitter: @ketab_n

القبائل الجنوبية والغربية

كان الجيران الأقرب للشيروكي من ناحية الجنوب هنود الكريك، أو الموسكوجي، الذين أوجدوا كونفدرالية مختلطة وسيطروا على وسط وجنوب جورجيا وألاباما. عرفهم الشيروكي باسم «آني – كو سا»، أو «آني –غو سا»، الاسم المشتق من كوسا، البلدة الرئيسة في بلاد الكريك العليا والتي قامت عند نهر كُوْسا، إلى الجنوب الغربي من المنطقة المعروفة اليوم بـ تالاديغا في ألاباما. في السابق وعلى الدوام، كان الكريك المقيمون في المنطقة السفلى يُميزون باسم «آني– كاوي تا»، نسبة إلى كاويتا، أو كوْويتا، عاصمتهم القديمة الواقعة عند الجانب الغربي من النهر في ألاباما، المواجهة تقريباً لمدينة كولومبس الراهنة في جورجيا. وكان الكريك متعادلين تقريباً مع الشيروكي من ناحية العدد، غير أنهم تمايزوا عنهم في إقامتهم كونفدرالية من قبائل متقاربة أو مندمجة، انضوت تحت اسم موسكوجي. وقد أطلق الأخيرون على الشيروكي اسم «تسال –غال غي»، أو «تسولغول غي»، صيغة الجمع لـ «تسا لاغي»، الاسم الأصلي للقبيلة.

Twitter: @ketab_n

كانت الحالة المألوفة بين القبيلتين حالة عداء، وقد تخللتها فترات سادت فيها النوايا الحسنة. وتجتمع المرويات التقليدية والدلائل اللغوية كلها لتُظهر سيطرة الكريك السابقة، في إحدى الحقبات، على مجمل شمال جورجيا وألاباما، حيث بسطوا سيطرتهم تلك على مسافات ملحوظة من تنيسي وربما كارولينا الشمالية، إلى أن طردوا من هناك على يد الشيروكي الذين ضغطوا عليهم من الشمال ومن الشمال الشرقي. وتحقق ذلك بشكل أساسي خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، وقد تُوج بالمشاركة الحاسمة للـ «تالي وا» قرابة العام 1755. وقد طالب الكريك في معظم مفاوضاتهم المبكرة مع الحكومة[1] باعتبار الأراضي التي تملكها القبائل المتعددة بمثابة ملكية مشتركة فلا يُنظر إلا بمسألة الحدود الفاصلة بين البيض والهنود. حين فشل الكريك في ذلك ادعوا ملكيتهم لمنطقة تشاتاهووتشي وكوسا بمجملها، وهي المنطقة الواقعة إلى شمال سلسلة الجبال الفاصلة بين المجريين المائيين المذكورين وبين تنيسي، لا بل إنهم وسعوا مطالبتهم تلك لتشمل تنيسي نفسها، وأعلنوا وجوب موافقتهم المسبقة على أي قرية للشيروكي تقوم ضمن الحدود المذكورة.

(1) حكومة المستوطنين الأمريكيين البيض (م).

Twitter: @ketab_n

في عام 1783 أعلنوا أن نهر سافانا يشكل الحدود الشرقية الفاصلة بينهم وبين الشيروكي، كما ادعوا امتلاكهم حصرية الحق في بيع أي من الأراضي الواقعة بين ذلك النهر وبين أوكوني. وفي المقابل أصرّ الشيروكي على ملكيتهم لمجمل الأراضي الممتدة على مسافة سبعين ميلاً إلى الجنوب من مدينة أتلانتا الحالية، مستندين في ذلك إلى قيامهم بطرد الكريك منها خلال ثلاث حروب متعاقبة، مُعلنين أن حقهم ذاك أقر به الكريك أنفسهم في اجتماع عقد للبت في المسألة بين القبيلتين قبل الثورة[1]. في اتفاق متبادل عقد في عام 1816، سُمح لأفراد من القبيلتين بالإقامة ضمن الأراضي التي تدعي كل قبيلة منهما امتلاكها. وقد امتدّ الحد الفاصل الذي اعتمد إثر وساطة قامت بها الحكومات الاستعمارية والفدرالية من مصب نهر برود في سافانا الذي يميل غرباً عبر جورجيا، قاطعاً نحو عشرة أميال في شمال أتلانتا، إلى نهر كوسا في ألاباما، ومن هناك يتجه إلى الشمال الغربي ليلامس حدود ألاباما الغربية على بعد عشرين ميلاً جنوبي تنيسي[2].

(1) الثورة الأمريكية في وجه التاج البريطاني (م).

(2) تشارلز س. رويس، «أمة الشيروكي الهندية»، في التقرير الخامس لمكتب الأبحاث الاثنية، ص ص. 205 – 208، 266، 272، 1887: أيضاً (لعام 1783) بارترام، الرحلات، ص. 483، 1792 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

ومن بين الأسماء التي ما زالت تشير إلى الوجود السابق للكريك شمال تلك الحدود: كوْيتا، وهو جدول صغير يلتحق بنهر تنيسي الصغير فوق فرانكلين، كارولينا الشمالية، توماتولا (في لغة الشيروكي تاما لي)، وهو موقع بلدة سابقة عند نهر فالي بالقرب من مورفي، كارولينا الشمالية، وكان الاسم المذكور اسماً لقرية سابقة من قرى الكريك عند نهر تشاتاهووتشي، تومُوتْلي (في لغة الشيروكي تاما لي) وهي مخاضة تقع في موضع بلدة أخرى عند نهر تنيسي الصغير، فوق مصب تيليكو في تنيسي، كوسا جدول تابع لنهر نوتلي في مقاطعة يونيون، جورجيا، تشاتووغا (في لغة الشيروكي تساتو غي)، وهو نهر في شمال غرب جورجيا، تشاتووغا (في لغة الشيروكي تساتو غي)، هو نهر آخر، جدول من ينابيع نهر سافانا، نهر تشاتاهووتشي (في لغة الكريك تشاتو–هوتشي، «الصخور المصورة»)، كووساواتي (في لغة الشيروكي كو سا– ويتي يي، «موضع الكريك القدماء»)، وهو نهر في شمال غرب جورجيا، تالي وا، هو تحوير الشيروكي لاسم في لغة الكريك يشير إلى مكان عند رافد علوي من روافد نهر إيتُوا في جورجيا، مشتق على الأرجح من عبارة تا لوا، أو إيتا لوا في لغة الكريك والتي تعني «بلدة»، إيوهارلي (في لغة الشيروكي يوها لي، ويقول

Twitter: @ketab_n

الشيروكي إنها عبارة مشتقة من يوفالا، أو إيوفاولا، الاسم الذي تحمله بعض بلدات الكريك)، هو جدول يجري ينضم إلى نهر إيتوْوَا الأسفل، سوْوَاني (في لغة الشيروكي سوْوا ني) وهو جدول صغير في أعلى تشاتاهووتشي، الموقع الذي كانت تقوم فيه بلدة سابقة للشيروكي يطلق عليها هؤلاء اسماً يقولون إنه بلغة الكريك. أسماء عديدة أخرى تضمها هذه الأراضي يرى الشيروكي أن أصولها أجنبية، على الرغم من أنها قد لا تكون بلغة الكريك، وربما اشتقت من لغة التاسكيجي.

حسب مرويات الشيروكي التي جمعها هايوود منذ نحو ثمانين عاماً، فقد كانت الأراضي الواقعة بالقرب من مصب نهر هيواسي في تنيسي، تحت سيطرة الكريك، فيما احتفظ الشيروكي بقراهم الرئيسة قرب نهر تنيسي الصغير، قُدماً في الشمال. قرابة العام 1700 خلال حرب الشاوانو، أظهر الكريك حسن النوايا تجاه الشيروكي في حين عملوا سراً على تقديم المساعدة لأعداء الأخيرين، الشاوانو. اكتشف الشيروكي فعل الخيانة ذاك فتحينوا فرصة زيارة مجموعة من الكريك للمشاركة في الرقص في إيتسا تي (إيتشوتا)، عاصمة الشيروكي، فانقضوا على أولئك الزائرين وقتلوا كل رجل منهم تقريباً. اندلعت الحرب بين القبيلتين إثر

Twitter: @ketab_n

ذلك، وكانت نتيجتها النهائية أن أجبر الكريك على إخلاء كل قراهم حول مياه تنيسي، والانسحاب جنوباً إلى كوسا وإلى جوار «درب الكريك»، طريق التجارة القديم المنطلق من ساوث كارولينا، والعابر في موضع التقاء نهري أوستانايوالا وإيتوْوَا، حيث تقوم اليوم مدينة روم، في جورجيا، وليضرب فيما بعد نهر تنيسي عند مدينة غونترسفيل الحالية، في ألاباما.

كواحدة من أحداث الحرب تحكي المروية ذاتها عن مجيء الشيروكي في إحدى المرات إلى قرية كبيرة من قرى الكريك واقعة «على الجزيرة في درب الكريك»، مقابل غونترسفيل عند نهر تنيسي، حيث قاموا بإخفاء قواهم الرئيسة وأرسلوا أمامهم مجموعة صغيرة كي تذهب وتستدرج الكريك إلى المعركة. على الفور ركب محاربو الكريك قواربهم لصد الهجوم، حينها وعلى نحو مفاجيء نهض الشيروكي من مخابئهم وطوقوا الكريك وهزموهم بعد معركة مريرة. ثم تقدّموا بواسطة المراكب التي سيطروا عليها، إلى الجزيرة ودمروا كل ما كان قائماً عليها. وكان قائد الشيروكي العظيم في تلك المعركة يدعى «بولهيد»[1]، اشتهر في المرويات بشجاعته ومهارته في وضع الخطط الحربية[2].

(1) رأس الثور (م).

(2) هايوود، «تاريخ تنيسي الطبيعي والأبوريجيناليي»، ص. 241، 1823. اسم «بولهيد» قد يكون هو نفسه «دوبلهيد» (الرأس المزدوج)، الذي هو من أسماء الشيروكي القديمة (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

وزهاء الفترة عينها، حسب ما يشير وافورد، زعم الشيروكي أنهم طردوا الكريك والشاوانو من قرية كانوا قد احتلوها معاً بالقرب من نهر سافانا، في جورجيا.

ثمة حكاية ما زالت متداولة في أوساط قلة من التجار القدامى الذين استمروا في العيش بجورجيا العليا في عام 1890، وهي تفيد أن الشيروكي حصلوا من الكريك على قطعة أرض كبيرة في ذلك الجزء من الولاية بعد فوزهم عليهم في مباريات كرة[1]. ليس ثمة اليوم من هنود يعيشون هناك في المنطقة المذكورة كي يقيموا دليلاً على هذه الحكاية. وتوحي طريقة سردها الأصلية أن لها معنى مقنعاً، إذ طالما استخدم تعبير «لعب مباريات كرة» عند الشيروكي ليشير على نحو رمزي إلى معركة حربية. ليس ثمة من إثبات كاف لرواية بارترام[2] التي تقول إن الشيروكي طُردوا على يد الكريك من المنطقة الواقعة بين نهري سافانا وأوكمولغي، في جنوب غرب جورجيا، خلال تلك الحقبة التاريخية[3]. فتلك الأراضي تبقى خارج كل مرويات الشيروكي، وتبدو الرواية

(1) موني، «لعبة الكرة عند الشيروكي»، في «أميركان أنتروبولوجست»، ص. 107، أبريل، 1890 (المؤلف).

(2) وليام بارترام (1739–1823): عالم طبيعة أمريكي ولد في كينغسيسينغ، بنسلفانيا. في عام 1773 انطلق في رحلة عبر المستوطنات الأمريكية الثمانية في جنوب الولايات المتحدة ووضع رسوم وكتابات تناولت الهنود الحمر من سكان تلك المناطق (م).

(3) بارترام، الرحلات، ص. 518، 1791 (م).

Twitter: @ketab_n

المذكورة متباينة عما نعرفه من خلال التاريخ. من كانوا في ذهن بارترام على الأرجح هم الأوتشي، الذين سكنوا تلك البلاد في الواقع إلى أن اتحدوا مع الكريك.

إضافة إلى ذلك لم يكن النصر حليف جانب واحد على الدوام، إذ يروي أدير[1] أنه ومع اقتراب نهاية الحرب الأخيرة بين القبيلتين، قام الكريك الذين تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالشيروكي بسهولة في إحدى المعارك، وعلى نحو يوحي بالازدراء، بإرسال عدد من النساء والفتيان لمواجهتهم. حسب ما يروي الكاتب المذكور فإن «الدافع الحقيقي والوحيد» لتلك للحرب الأخيرة كان مقتل بعض أقارب الكريك المُتبنين في عام 1749 على يد مجموعة من الشاوانو الشماليين، هؤلاء الذين وجههم الشيروكي وقاموا بتأمين الملاذ لهم فيما بعد[2]. الحرب التي يقدمها على أنها لعبة الشيروكي الخاسرة، بلغت خواتمها أخيراً بفضل جهود حاكم ساوث كارولينا، بنتيجة غير سارة للبريطانيين لأن الكريك كانوا قد دعموا الشيروكي في حرب العام 1760 وقدموا لهم مساعدة جوهرية تمثلت بالرجال والذخائر.

(1) جايمس أدير: تاجر ومؤلف هندي (م).
(2) أدير، «تاريخ الهنود الأمريكيين»، ص ص. 227، 247، 256-252، 270، 279-276، 1775 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

معركة «تالي وا» التي حَسَمَت لصالح الشيروكي الحرب المديدة بين بينهم والكريك، وقعت قرابة العام 1755 أو قبله بعدة أعوام قليلة، في موقع قريب من جدول ماونتن[1] أو جدول المستنقع الطويل الذي ينضم إلى نهر إيتوْوَا في أعلى كانتون، جورجيا، على مقربة من مكان عبور الطريق القديمة النهر بمحاذاة بلدة المستنقع الطويل. وكل المعلومات التي بحوزتنا حولها مستقاة من مرويات تقليدية أُخذت من جايمس وافورد الذي سمع قصتها عندما كان فتى قرابة العام 1815 من تاجر مسن يدعى براين وارد كان قد شهد تلك المعركة قبل ستين عاماً. حسب رواية وافورد فمن المرجح أن تكون المعركة المذكورة من أقسى المعارك التي وقعت بين القبيلتين على الإطلاق، حيث شارك فيها خمسمئة محارب من الشيروكي وضعفهم من محاربي الكريك. وقد شعر الشيروكي في البداية بالهزيمة وتقهقروا، لكنهم أعادوا تنظيم صفوفهم واستأنفوا الهجوم، فأخرجوا الكريك من متاريسهم الأمر الذي شتتهم وحملهم على الهرب. كان النصر مكتملاً وحاسماً، وفي الحال على إثره أخلت القبيلة المهزومة مجمل القسم العلوي من جورجيا والقسم المحاذي لألاباما وتركتهما للفاتحين. قبل هذه المعركة كان الكريك

(1) جبل (م).

Twitter: @ketab_n

معتادين على التنقل تبعاً للظرف الملائم من مكان إلى آخر، لكنهم بعدها باتوا أكثر ارتباطاً بمواقع سكن ثابتة. من عواقب تلك الهزيمة كانت أن تركوا بلدتهم الواقعة عند نهر نوتلي، في أسفل جدول كوسا قرب مدينة بليرسفيل في جورجيا، وسرعان ما قام الشيروكي القادمين من بلداتهم عند منبع نهر سافانا، في إشغال حقول الكريك القديمة.

كما سبق وقيل، فإن سلاماً تم عقده في نحو عام 1759، وذلك في زمن يسمح للكريك بأن يقوموا بمساعدة الشيروكي في حربهم مع ساوث كارولينا. وهناك أمور أخرى قليلة نسمعها فيما خص العلاقة بين القبيلتين حتى حرب الكريك بين العامين 1813– 1814، والتي يجري وصفها تفصيلاً في موضع آخر، بعد هذا فإن تاريخ كل من القبيلتين راح ينفصل عن الآخر.

كانت «يوتشي»[1]، أو «أوتشي»[2]، الذين يطلق الشيروكي عليهم اسم «آني – يو تسي»، قبيلة تمتلك مخزوناً لغوياً متميزاً وتتمتع بأهمية ملحوظة منذ القدم، وقد جاورت أراضيها نهر سافانا من الجهتين مباشرة في أسفل بلاد الشيروكي، وامتدت لبعض المسافة غرباً في جورجيا، حيث حاذت من هناك بلاد

(1) Yuchi
(2) Uchee

Twitter: @ketab_n

الكريك. هؤلاء أخذوا يُطردون على نحو متدرج من قبل البيض وقد اندمجوا في الكريك قرابة العام 1740، لكنهم استعادوا هويتهم ولغتهم المستقلتين واحتفظوا بهما حتى هذا اليوم، وتعد بلدتهم الواقعة في أمة الكريك بالأراضي الهندية، البلدة الأكبر هناك الآن.

حسب شهادة أدلى بها واحدة من الشيروكي مختلط الدم يدعى «غانسي تي» أو «اليقطينة المجلجلة»، وهو ولد قرب نهر هيواسي في عام 1820 وجاء مع جماعته إلى الغرب في عام 1838، فإن عدداً من الأفراد من قبيلة يوتشي كانوا قد عاشوا، قبل الترحيل، موزعين في أوساط الشيروكي بالقرب من كليفلند الحالية في تنيسي، كما عاشوا قرب جداول تشيكاماوغا، كوهوتا، وباينلوغ في المنطقة المحاذية لجورجيا. لم يكن لهؤلاء قرى مستقلة، لكن كانت لهم لغتهم الخاصة، التي وصفها «غانسي تي» بأنها «صعبة». بعضهم تحدث أيضاً بلغتي الشيروكي والكريك. وكان أبناء هذه القبيلة قد انحرفوا على الأرجح شمالاً من بلاد الكريك قبل تثبيت الحدود بين القبائل. عندما أُسست «تاهليكيوا» عاصمة لأمة الشيروكي في الغرب عام 1839 كان ثمة في موقعها عدد صغير من أفراد اليوتشي

Twitter: @ketab_n

يستوطنون المكان، حيث من المفترض أنه كان قد جرى ترحيلهم من الشرق مع بعض أفراد الكريك إثر مقتل الزعيم ماكنتوش في عام 1825. وقد هلك اليوتشي هؤلاء جراء وباء الجدري الذي تفشى في عام 1840 في الأراضي المستكشفة، وكانت قبورهم في تاهليكيوا ما زالت بارزة في عام 1891. قبل اندلاع الحرب الأهلية بوقت قصير كان ثمة قرية كبيرة ومزدهرة لليوتشي عند نهر سيمارون، في المنطقة التي باتت قطاع الشيروكي فيما بعد.

يشير رامسي[1] إلى أن «قبيلة صغيرة من الأوتشي» كانت قد سكنت مرة البلاد قرب مصب نهر هيواسي، وكادت تلك القبيلة أن تُفنى في معركة مريرة مع الشيروكي في منطقة أوتشي أولد فيلدز[2] في مقاطعة ريِيا (اليوم ميغز) في تنيسي، وقد انسحبت القلة التي نجت من القبيلة المذكورة إلى فلوريدا حيث اندمج أفرادها في قبيلة سيمينول[3]. إشارة رامسي هذه تفتقر إلى أي إسناد آخر.

«نا تسي»، أو «ناتشيز»، هي قبيلة مهزومة أخرى اندمج قسم منها مع الكريك وقسم آخر مع الشيروكي، وقد سكنت في الأصل الأراضي الواقعة حول موقع بلدة ناتشيز الحالية في ميسيسيبي

(1) دكتور ج.ج.م. رامسي، في كتابه «حوليات تنيسي (1853) (المؤلف).
(2) حقول الأوتشي القديمة (م).
(3) رامسي، «حوليات تنيسي»، ص ص. 81، 84، 1853 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

الجنوبية، ومارست من هناك نفوذاً قيادياً على جميع قبائل المنطقة. في عاقبة الحرب الكارثية مع الفرنسيين بين العامين 1729 و1731 تشتت تلك القبيلة فالتجأ بعض أفرادها إلى التشيكاسو، وآخرون إلى الكريك في الفترة نفسها أو بعدها، في حين تقدم آخرون منهم في عام 1736 إلى حكومة ساوث كارولينا طالبين إذناً بالسكن على ضفة نهر سافانا. وقد منحوا الإذن على ما يبدو، وإننا لنجد اسم «ناتشي» مذكوراً كواحد من أسماء القبائل التي عاشت مع الكاتاوبا في عام 1743، من دون التخلي عن لغتها الخاصة. في عاقبة قتلهم لعدد من أفراد الكاتاوبا خلال شجار ثم أكرهوا على مغادرة هذه المنطقة، حيث ما لبثوا أن انضموا إلى الشيروكي بعد ذلك على ما يبدو، إذ أننا نقع على ذكرهم مرتين في ما يتصل بتلك القبيلة في عام 1755. هذا الأمر يبدو كإشارة أخيرة لهم في مدونات ساوث كارولينا[1].

هنا بالضبط تبرز هم مرويات الشيروكي تحت اسم «آنين تسي» الذي يشكل اختصاراً لـ «آني نا تسي»، صيغة الجمع لعبارة «نا تسي». من التطابق المصادف لهذا الاسم مع اسم شجرة الصنوبر، «نا تسي»، قام بعض الهنود ممن يستخدمون اللغة الإنجليزية

(1) جايمس موني، «قبائل سايوْوان الشرقية» (نشرة مكتب الدراسات الإثنية)، ص. 83، 1894 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

بتحويل هذا الاسم إلى «هنود الصنوبر». يقرّ الشيروكي عموماً بمجيء الناتشيز إليهم قادمين من ساوث كارولينا، برغم اعتبار البعض أنهم أتوا من بلاد الكريك. من المرجح أن يكون الأوائل منهم قد جاؤوا من كارولينا حيث انضم إليهم فيما بعد آخرون من الكريك والتشيكاسو. يشير بيانفيل[1] في عام 1742، إلى أن بعض هؤلاء كان قد توجه مباشرة إلى الشيروكي من التشيكاسو بعد أن شَعر بتعرض الأخيرين لضغك كبير مارسه الفرنسيون عليهم ما جعلهم غير قادرين على الاهتمام بأمر من يأتيهم[2]. يبدو هؤلاء في نظرة الشيروكي إليهم عرقاً من العرافين والسحرة، وهي النظرة المتكونة في جزء منها على ما يبدو بالاستناد إلى طقوسهم الدينية الخاصة وفي جزء آخر من النفوذ الذي يتمتعون به كونهم بقية من قبيلة مقتلعة. برغم عدم توافر معلومات مباشرة عن المسألة، إلا أنه لدينا ما يدفعنا للاعتقاد بأن الاتصال بين القبيلتين كان قائماً منذ فترة طويلة سبقت حرب الناتشيز.

حسب رواية لجايمس وافورد المولود في عام 1806 قرب موقع مدينة كلاركسفيل، جورجيا حين كانت تلك المنطقة لا تزال منطقة هندية، فقد كان لأبناء قبيلة الـ «نوتشيز» بلدتهم على

(1) جون بابتيست لو موين دو بيانفيل (1680–1767): هو الحاكم الفرنسي للويزيانا ومؤسس مدينة نيو أورليانز (م).

(2) بيانفيل، كما نقل عنه تشارل غاياري، لويزيانا (م).

Twitter: @ketab_n

الضفة الشمالية لنهر هيواسي، تماماً في أعلى جدول بيتش تري[1]، في الموضع حيث أسس المحترم إيفان جونز بعثة معمدانية في عام 1821، وذلك على بعد أميال قليلة فوق بلدة مورفي الحالية بمقاطعة الشيروكي في كارولينا الشمالية. كان في عروق وافورد أثراً من الناتشيز استمده من ناحية والدته. وأخبرته جدته أنها في شبابها، ربما قرابة العام 1755، تسنى لها مرة الذهاب إلى تلك البلدة في رحلة عمل، حيث اضطرت للتفاهم مع السكان عبر مترجم، إذ لم يكن قد مضى على وجود الناتشيز هناك سوى فترة قصيرة لم تسمح لأكثر من شخص واحد منهم، أو شخصين، التحدث بلغة الشيروكي. كانوا جميعاً في بلدة واحدة سماها الشيروكي «غوال غا هِيْ»، «مكان الضفدعة»، لكن وافورد لم يتمكن من البت فيما إذا كان ثمة دار بلدة هناك أم لا. في عام 1824، وكواحد من المشتغلين في تنفيذ الإحصاء الرسمي للسكان في أمة الشيروكي، ذهب وافورد مرة أخرى إلى تلك الناحية ورأى الناتشيز حينذاك يحيون والشيروكي معاً في بلدة تدعى «غو لاني يي» عند التقاء جدولي براستاون وغاملوغ، حيث يتشكل أحد روافد نهر هيواسي، على بعد نحو ستة أميال جنوب شرق موقعهم السابق وعلى مقربة من حدود جورجيا.

(1) Peachtree creek جدول شجرة الدراق (م).

Twitter: @ketab_n

وذلك الانتقال مرده ربما إلى تأسيس الإرسالية أخيراً في المكان القديم. كانت تلك قرية كبيرة، تتألف، على نحو متعادل، من أبناء القبيلتين، لكن في ذلك الوقت لم يكن أبناء الناتشيز متميزين بأزيائهم وبهيآتهم أمام الآخرين، وقد تحدثوا كلهم تقريباً بلغة شيروكي مكسرة، في حين احتفظوا بلغتهم الخاصة. ولأنهم كمعظم الهنود كانوا قد حلوا في ظل التأثيرات المسيحية لدرجة أنهم أقلعوا عن الرقص، فلم يكن لديهم دار بلدة. هاري سميث، المولود قرابة العام 1820، ووالد زعيم الشيروكي الشرقيين في الآونة الأخيرة، يتذكرهم أيضاً ساكنين هناك على ضفة هيواسي ومطلقين على أنفسهم اسم «نا تسي».

يروي «غانسي تي»، المذكور آنفاً، أن الناتشيز في زمن فتوته كانوا موزعين بين قرى الشيروكي على طول القسم العلوي من نهر هيواسي، وقد تمددوا نزولاً في تنيسي. لم يكن لديهم آنذاك دُور بلدات منفصلة. بعضهم، على الأقل، جاء من الكريك وكان يتكلم لغة الأخيرين ولغة الشيروكي بالإضافة إلى لغتهم الخاصة التي لم يكن «غانسي تي» يفهمها برغم دالته في اللغتين الأُخريين. كانوا قادة رقص عظماء، ما يتفق مع سمعتهم التقليدية في الاحتفال وفي الطقوس.

Twitter: @ketab_n

وقد ذهبوا غرباً مع الشيروكي خلال الترحيل الأخير لتلك القبيلة إلى الأراضي الهندية في عام 1838. عند نهر إلينوي وعلى بعد أميال قليلة جنوب تاهليكيوا في أمة الشيروكي، وفي عام 1890، كان ثمة قرية صغيرة يحيا فيها أشخاص عديدون كانوا ما زالوا يستخدمون لغتهم الخاصة. قد يكون بعض هؤلاء أتى مع الكريك وذلك ضمن اتفاق بينهم وبين الشيروكي، خلال زمن الترحيل، اقتضى أن يبقى أفراد كل من القبيلتين ممن يحيون في مناطق يدعي الطرف الآخر ملكيتها في مكانهم ومن دون مساءلة إن تم اختيارهم على هذا النحو. ما زال هناك في أوساط الشيروكي الشرقيين، أشخاص عديدون ممن يدعون انتسابهم إلى الناتشيز، على أن آخر من قال إنه صافي النسب إلى الناتشيز كانت عجوز تدعى «ألكيني» توفيت قرابة العام 1895، اشتهرت بميزات غير مألوفة، خاصة بأسلوبها المتشدق في الكلام الذي يقال إنه كان واحداً من صفات قومها على ما يتذكرهم كبار السن في السنوات السالفة.

يقول هايوود، مؤرخ تنيسي، إن بقايا من الناتشيز عاشوا في أواخر العام 1750 ضمن الحدود الراهنة للولاية، وكانت

Twitter: @ketab_n

أعدادهم كثيرة آنذاك. يرجع هايوود إلى أولئك الذين عاشوا مع الشيروكي ويروي عنهم قصة مثيرة، لم تنل على ما يبدو اهتمام غيره من الكتاب. حسب روايته فإن جماعة من الناتشيز الذين كانوا قد أُخذوا عبيداً للفرنسيين في جوار منازلهم القديمة بعد سقوط قبيلتهم، استغلت انسحاب القوى النظامية إلى الشمال في عام 1758 فقامت تلك المجموعة وقتلت أسيادها ثم فر أفرادها إلى القبائل المجاورة. حين عاد الجنود إثر سقوط حصن دو كين[1] وجدوا القرية في ناتشيز مدمرة وعبيدهم الهنود فارين. بعد مضي زمن قصير على ذلك جاء فرنسي هارب من الجندية يطلب اللجوء بين الشيروكي بعد أن سلك طريقه نحو بلدة غرايت آيلاند على ضفة نهر تنيسي، الواقعة بالتحديد في أسفل مصب نهر تيليكو، فوجئ حين وجد هناك بعض هنود الناتشيز أنفسهم ممن كان قد قادهم في السابق كعبيد. لم يُضِع وقتاً قبل أن يبتعد عن المكان كي يجد مناطق أكثر أمناً بين بلدات الجبال. وقد استمدّ جدول نوتشي، الرافد السفلي لنهر تيليكو، بمقاطعة مونرو في تنيسي، اسمه على الأرجح من هؤلاء اللاجئين. ويروي هايوود أيضاً أنه وعلى الرغم من

(1) Fort Du Quesne حصن بناه الفرنسيون في عام 1754 عند التقاء نهري اليغيني ومونونغاهيلا في الموقع الذي يشكل اليوم وسط مدينة بيتسبيرغ بولاية بنسلفانيا (م).

Twitter: @ketab_n

اندماجهم في الشيروكي، فقد أكملوا حياتهم على مدى فترة طويلة، كشعب مستقل، فلم يتزوجوا من القبائل الأخرى ولم يختلطوا بها، كما اتخذوا زعماء لهم وعقدوا مجالسهم الخاصة، لكن مع حلول العام 1823 فإن ذلك كله اختفى تقريباً ولم يبق لهم منه سوى الاسم[1].

من القبائل الأخرى التي اندمج جزء منها بالشيروكي وجزء آخر بالكريك قبيلة تيسكيجي، التي كان لها في حقبة مبكرة بلدة كبيرة تحمل اسمها عند الطرف الجنوبي من نهر تنيسي الصغير، تحديداً فوق مصب نهر تيليكو، بمقاطعة مونرو في تنيسي. سيكيويا، مخترع أبجدية الشيروكي، عاش في هذه البلدة حين كان فتى زهاء زمن الثورة[2]. وقد بيعت لتلك الأرض في العام 1819. قرية أخرى كانت تحمل الاسم ذاته، وربما شُغلت من قبل أولئك الناس أنفسهم، قامت عند الضفة الشمالية لنهر تنيسي، عند منعطف يقع تحديداً في أسفل تشاتانوغا في تنيسي، على أرض بيعت أيضاً في عام 1819. وثمة قرية غيرها قد تكون قد قامت في فترة ما عند جدول توسكيجي، على الضفة الجنوبية

(1) هايوود، «تاريخ تنيسي الطبيعي والأبوريجيناليي»، ص ص. 107–105، 1823. للاطلاع على وصف حرب الناتشيز وعلى تاريخ شتات القبيلة المتفرقة على أثر تلك الحرب، أنظر نص المؤلف نفسه، المكتوب تحت عنوان «نهاية الناتشيز» في مجلة «أميركان أنتروبولوجست» عدد يوليو، 1899 (المؤلف).

(2) الثورة الأمريكية (م).

Twitter: @ketab_n

لنهر تنيسي الصغير، شمال روبنسفيل، في مقاطعة غراهام، بنورث كارولينا، وذلك على أرض ظلت مشغولة حتى الترحيل في عام 1838. وقامت بلدة تاسكيجي في بلاد الكريك قرب نهر كوسا، على مقربة من نقطة التقاء الأخير مع نهر تالابوسا، على مسافة قصيرة فوق منتغوميري الحالية في ألاباما. وإننا نقع على ذكر «تاسكوي كوي» باعتبارها بلدة في بلاد الكريك زارها القبطان الإسباني خوان بادرو في عام 1567. إنه اسم مطابق على الأرجح، برغم أنه لا يسعنا التأكد فيما إذا كان الموقع هو نفسه الذي قامت عليه القرية اللاحقة.

من كان التاسكيجي وماذا كانوا هما أمران غامضان قد لا نجد جواباً عنهما قطّ، غير أننا ندرك أنهم لم يكونوا من الشيروكي ولا من الموسكوجي المعروفين. ما قد يبدو أكثر ترجيحاً هو صلتهم بقبيلة الموسخوجيين[1]، لكنهم قد يكونون قبيلة مهاجرة تتحدر من فرع آخر، أو حتى شكلوا تراثاً لغوياً متميزاً، ضمنوه كل ما خلفته الشعوب القديمة التي سبقت إقامتها في هذه البلاد مجيء الشيروكي والكريك إليها. قد يكون الاسم مشتقاً من «تاسكا» أو «تاسكا يا»، التي تعني «محارب» في العديد من لهجات الموسخوجيين المحكية. إنها ليست عبارة مستمدة من لغة

(1) Muskhogean

Twitter: @ketab_n

الشيروكي، كما يذكر العارفون من الشيروكي على نحو إيجابي بأن التاسكيجي كانوا شعباً أجنبياً، له لغته المتميزة وعاداته. هم لم يكونوا من الكريك ولا من الناتشيز ولا من الأوتشي أو من الشاوانو، هؤلاء جميعاً الذين عرفهم الشيروكي جيداً تحت أسماء أخرى. في دار بلدة قريتهم عند مصب نهر تيليكو، أقاموا عموداً علقوا في رأسه «تعويذتهم» الواقية، صورة لهيئة كائن بشري نُحتت من جذع شجرة سدر. لهذا السبب أطلق الشيروكي أحياناً على المكان، وبسخرية، اسم «أتسينا -ك تايون»، «مكان السدرة المعلقة». قبل بيع الأرض في عام 1819 كان هؤلاء قد أشرفوا على الامحاء ما جعل الشيروكي يتحركون قدماً ويحتلون المكان.

في عام 1775، يُشير أدير[1] إلى «تابي - كِيو - جي» كواحدة من مجموعة قبائل مهزومة كان الكريك قد «استدرجوها بدهاء» للتعاون معها بغية تقوية أنفسهم في وجه الهجمات المعادية. ويذكر ميلفورت[2]، قرابة العام 1780، أن التسكيجي المقيمين

(1) جايمس أدير، «تاريخ الهنود الأمريكيين»، ص. 257، 1775. المرويات الأخرى المتعلقة بالتسكيجي بين هنود الكريك هي مرويات مأخوذة من دراسة ألبرت صموئيل غاتشيت القيمة التي تحمل عنوان «اسطورة تنقل هنود الكريك»، الجزء الأول، ص ص. 122، 145، 229، 1884 (المؤلف).

(2) LeClerc Milfort رجل فرنسي وصل إلى أميركا في عام 1776 واهتم بالهنود الحمر وعندما عاد إلى فرنسا كتب مذكراته معهم (م).

Twitter: @ketab_n

على ضفاف نهر كوسا كانوا جماعة من الأجانب جاءت بهم الحروب لطلب اللجوء بين الكريك، إذ شجعهم على ذلك حسن الاستقبال التي كانت قبيلة هاربة أخرى قد لاقته. طلبهم ذاك ضمنته الكونفدرالية، وقد مُنحوا أرضاً قاموا ببناء بلدتهم عليها. ويضع ميلفورت هذه الحادثة في سياق يسبق بقليل اندماج اليوتشي، هذا الحدث الأخير الذي يضعه في مطلع القرن الثامن عشر. في عام 1799، حسب ما يذكر هاوكينز[1]، لم يكن في البلدة أكثر من 35 محارب، وقد «فقدت لغتها القديمة» وراحت تتحدث بلغة الكريك. وكان هناك لا يزال بلدة «بيضاء»، أو بلدة سلام، تحمل اسم تسكيجي في أمة الكريك بالأراضي الهندية.

كان الجيران الأقرب للشيروكي من ناحية الغرب، بعد طرد الشاوانو، التشيكاسو، الذين عرفهم الشيروكي باسم «آني – تسي كسو»، والذين تمتد أراضيهم بالدرجة الأولى بين نهري الميسيسيبي وتنيسي، في المنطقة التي تشكل اليوم غرب كنتاكي وتنيسي و– من ناحية ثانية – القسم الشمالي الأقصى من ميسيسيبي. من خلال القوة، الفتح على يد الشاوانو، أو بواسطة التملك الشائع قديماً، سعوا لأراض إضافية كبيرة إلى الشرق من

(1) Benjamin Hawkins

Twitter: @ketab_n

تلك المنطقة، من ضمنها كل الأراضي المحاذية لمياه نهر داك[1] وجدول إيلك.

ونازعهم على سعيهم ذاك الشيروكي. وحسب ما يذكر هايوود، فقد كانت القبيلتان المذكورتان متصادقتين متحالفتين في طرد الشاوانو، لكن بعد ذلك، قبل حرب العام 1769 بقليل، قام الشيروكي ومن دونما سبب مقنع ظاهر، بالتذرع بشجار مع التشيكاسو وهاجموهم في بلدتهم بمكان عُرف فيما بعد بحقول التشيكاسو القديمة[2]، عند الطرف الشمالي من نهر تنيسي، على بعد نحو عشرين ميل في أسفل مدينة غونترسفيل الحالية في ألاباما. دافع التشيكاسو عن أنفسهم بطريقة ممتازة أنزلت بالمهاجمين هزيمة مشهودة وأكرهتهم على التقهقر إلى بلادهم[3]. إلى ذلك، فقد بدا أن التشيكاسو الذين اعتبروا تلك القرية بعيدة جداً عن قراهم الرئيسة، قاموا بهجرها بعد المعركة. على الرغم من قيام السلام بين القبيلتين فيما بعد، فإن مساعيهما المتنافسة استمرت في تبديها كمواضيع للنزاع على طول حقبة المعاهدة.

(1) Duck River نهر البطة (م).

(2) Chickasaw Old Fields

(3) هايوود، «تاريخ تنيسي الطبيعي والأبوريجيناليي»، ص. 24، 1823. بحسب مرجع معاصر في ريفيرز، ساوث كارولينا، ص. 57، فقد بدت تلك الحرب بكامل استعارها في عام 1757 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

التشوكتو، تلك الفدرالية القبلية الواهية التي شغلت فيما مضى ميسيسيبي الجنوبية والمنطقة الساحلية المحاذية، دعاها الشيروكي باسم «آني – تسا تا»، وهُمْ لم يقيموا معها على ما يبدو سوى القليل من الاتصالات، إذ أن الأراضي الوسيطة بينهما كانت تحت سيطرة الكريك الذين كانوا عموماً في حالة حرب مع قبيلة منهما، أو مع الأخرى. في عام 1708 نجد ذكراً لحملة قوية جردها الشيروكي والكريك والكاتاوبا ضد التشوكتو الذين كانوا يعيشون حول خليج موبايل[1].

الـ «آني واسا سي»، أو الـ «أوساج»، هم من الجماعات الهندية في منطقة غرب الميسيسيبي الذين عرفهم الشيروكي أكثر من غيرهم، وقد كانوا قبيلة قوية من النهابين الذين سيطروا فيما مضى على معظم البلاد الواقعة بين نهري ميسوري وأركنساس، وتوسعوا في السهول مبتعدين عن الميسيسي. الاسم الذي عرفهم الشيروكي به هو اشتقاق من «واساش»، على ما يسمي الـ «أوساج» أنفسهم[2]. العلاقات بين القبيلتين بدت على الدوام تقريباً علاقات عداء وذلك منذ أن رفض الـ «أوساج» الانضمام إلى معاهدة السلام الهندية العامة التي أُقرت في عام 1768 (انظر

(1) مارغري، أوردها غاتشيت، «أسطورة تنقل الكريك»، الجزء الأول، ص ص. 16، 87، 1884 (المؤلف).

(2) واساش هو بالفرنسية أوزاج، وقد حوره الأمريكيون إلى أوساج (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

«حروب الإيروكوا») واستمرت حتى عام 1822، حين تدخلت الحكومة لفرض إنهاء حمام الدم. كانت المرارة كبيرة نظراً لحقيقة أنه منذ المعاهدة الأولى للشيروكي مع الولايات المتحدة، والتي وقعت في هوبويل، ساوث كارولينا في عام 1785، ومجموعات الشيروكي الصغيرة المستاءة من الاعتداءات المستمرة التي يقوم بها البيض، أخذت ترحل إلى ما وراء الميسيسيبي لتقيم قرى جديدة ضمن الأراضي التي أعلنها الـ «أوساج» ملكاً لهم، حيث كانت أعدادهم في عام 1817 قد راوحت بين ألفين وثلاثة آلاف شخص. وفي ما يظهر جدة نمونا كأمة، فمن المهم الانتباه إلى أن وافورد، حين كان لا يزال فتى، حضر على مقربة من موقع مدينة كلاركسفيل الحالية في جورجيا، قبيل نهر سافانا، رقصة فروات رؤوس أداها الشيروكي، حيث رقصت النساء حول عدد من فروات رؤوس الـ «أوساج» أُرسلت من قبل أقارب لهم في الغرب كرموز لانتصار حُقق أخيراً.

اسم «تايون سكي» هو من الأسماء القديمة الأخرى التي لا يمكن تعيين هوية أصحابها والتي أطلقها الشيروكي على القبائل الغربية. إنه اسم عصي على الترجمة يطلق على قبيلة توصف ببساطة على أنها تحيا في الغرب، «تسونِيَا تيغا»، «الشعب

Twitter: @ketab_n

العاري»، قبيلة توصف بأنها تحيى في أقصى الغرب، «غان – تسوسكوا لي»، «النبال القصيرة»، القبيلة التي عاشت في أقصى الغرب، والتي ضمت محاربين عظام برغم صغرها، «يون ويني غيسكي»، «أكلة البشر»، القبيلة العدائية في الغرب أو الشمال، وهي على الأرجح قبيلة «أتاكابا»، أو «تونكاوا»، أكلة لحوم البشر الذين عاشوا في لويزيانا، أو تكساس. علاقات هؤلاء مع القبائل التي أخذوا يحتكون بها منذ الترحيل إلى الأراضي الهندية لا تُشمل في هذا النص.

Twitter: @ketab_n

العمالقة الغربيون

يقول جايمس وافورد، وهو شيروكي غربي ولد في جورجيا عام 1806، إن جدته المولودة في فترة قريبة من أواسط القرن الماضي على الأرجح، أخبرته عما سمعته من أشخاص مسنين رووا لها أنه، وقبل زمانها بوقت طويل، قدمت في إحدى المرات مجموعة من العمالقة لزيارة الشيروكي. طول هؤلاء قارب ضعف طول البشر العاديين وقد امتلكوا عيوناً مائلة في رؤوسهم، ما جعل الشيروكي يسمونهم «تسونيل كالو»، «البشر ذوو العيون المائلة»، إذ أنهم بدوا شبيهين بالصياد العملاق «تسول كالو». قال المسنون إن هؤلاء العمالقة كانوا يعيشون في مكان بعيد جداً في الجهة التي تغرب فيها الشمس. استقبلهم الشيروكي كأصدقاء، فأقام العمالقة عندهم لبعض الوقت، ثم عادوا إلى موطنهم في الغرب. وقد تكون هذه القصة تكون حكاية تاريخية محرّفة.

Twitter: @ketab_n

الشيروكي الضائعون

عندما باع الشيروكي أولى الأراضي في عام 1721، عارضت جماعة منهم ذلك البيع معارضة شديدة، قائلة إنه لو قبل الهنود مرة الاستغناء عن أي من أراضيهم فإن البيض لن يكتفوا البتة، بل سيسارعون في السعي لما هو أكثر بقليل، ثم إلى المزيد، حتى لا يبقى شيء للهنود في النهاية. حين أحسوا أن كل ما يمكنهم قوله لن يوقف اتفاق البيع، قرروا مغادرة ديارهم القديمة إلى الأبد والذهاب بعيداً نحو الغرب، خلف النهر العظيم[1]، حيث لن يتمكن البيض أبداً من اللحاق بهم. لم يعيروا توسل أصدقائهم انتباهاً، بل شرعوا في استعداداتهم للمسير طويل، إلى أن أخذ الآخرون، حين وجدوا أنهم لن يتمكنوا من الحؤول دون ذهابهم، بالعمل معهم باذلين ما بوسعهم لتهيئة أحمال الخيول لهم المتضمنة خبزاً ولحم غزلان مجفف وغيرها من المؤن.

(1) نهر الميسيسيبي (م).

Twitter: @ketab_n

حين جُهز كل شيء انطلقوا بتوجيهات من زعيمهم. وقد أرسلت معهم مجموعة من الرجال المختارين لمساعدتهم في عبور النهر العظيم، وكان في كل ليلة، منذ انطلاقهم وحتى بلوغهم النهر، يتم إرسال عدائين كي يرجعوا إلى القبيلة، وآخرون يُرسلون من القبيلة إلى الفرقة السائرة، وذلك كي ينقلوا الرسائل بين الطرفين فيبقى كل طرف مطلع على ما يجري في الطرف الآخر. في النهاية بلغوا المسيسيبي وعبروه بمساعدة أولئك المحاربين الذين أُرسلوا معهم. ثم عاد الأخيرون إلى القبيلة، فيما أكمل السائرون طريقهم نحو الغرب. وقد انتهت حينذاك كل الاتصالات معهم، فلم يسمع شيء آخر عن الهائمين، ومع مرور الزمن فإن تلك القصة عن فرقة الشيروكي الضائعة باتت تُنسى أو تُذكر باعتبارها حكاية قديمة لا أكثر.

إلى ذلك ضغط البيض على الشيروكي وأخذت تباع الأراضي قطعة إثر أخرى، إلى أن بدأ هؤلاء المطرودون يتجهون، مع مرور الأعوام، نحو الغرب كملاذ أخير يستقرون به، فعبرت مجموعات صغيرة من الصيادين نهر الميسيسيبي كي تستكشف ماذا قد يكون خلفه. وأكملت إحدى تلك المجموعات طريقها

Twitter: @ketab_n

عبر السهول، وهناك عند أسفل الجبال العظيمة – جبال روكي – وجدت قبيلة تتحدث بلغة الشيروكي القديمة ولا تزال تحيا كما كان الشيروكي يحيون قبل تعرفهم على الرجل الأبيض أو على وسائله.

Twitter: @ketab_n

مجزرة الـ «آني - كوتا ني»

من بين الحكايات الأخرى الآخذة بالزوال، ثمة واحدة تدور حول الـ «آني – كوتا ني» أو الـ«آني – كواتا ني»، القبيلة التي لا يعرف الشيروكي الحديثون عنها سوى القليل، ما يجعل هويتها الحقيقية اليوم تغدو موضوعاً متنازعاً عليه، فيتمسك بعضهم بفكرة أن أهلها كانوا شعباً قديماً سبق الشيروكي وسكن الروابي، فيما يرى آخرون، أكثر اطلاعاً، بأن هؤلاء كانوا عشيرة أو جماعة في القبيلة وقد اندثروا منذ زمن بعيد جراء الطاعون أو وباء آخر أصابهم. لحسن الحظ فإننا لسنا متروكين للاستناد كلياً إلى حدسنا في هذا الأمر، إذ أن هايوود كان قد ذكر الحكاية منذ نحو سبعين عاماً، كما ذكرها كاتب آخر بعده بنحو أربعين عاماً، فيما يبقى الوصول إلى القصة المتعلقة بها ممكناً من خلال مراجع وافية. من خلال الروايات المتعددة فإن الـ «آني – كوتا ني» تبدو عشيرة من الكهنة توارثت مهام الإشراف على جميع الاحتفالات الدينية في أوساط الشيروكي، إلى أن جرى

Twitter: @ketab_n

مهاجمتها وإفنائها على يد الآخرين من القبيلة كعاقبة لإساءتها استخدام امتيازاتها المقدسة، الأمر الذي ترك الوظائف الكهنوتية بعد ذلك لأفراد من الأطباء والعرافين.

يقول هايوود، من غير إعطاء أسماء أو تفاصيل، إن «الشيروكي أدمنوا اللجوء إلى العزائم للتحقق فيما إذا كان الشخص المريض مقبل على الشفاء. وقامت هذه العادة بعد أن هلك كهنتهم. وتتحدّث الرواية عن أن شخصاً من هؤلاء العرافين كان قد عاش بين أجدادهم الذين اعتبروا أنفسهم أرفع مقاماً من غيرهم وقد أبيدوا منذ زمن بعيد كعاقبة لسوء تصرف واحد من الكهنة كان قد حاول الحصول على زوجة شقيق زعيم الأمة»[1].

وهناك رواية أكثر تفصيلاً مصدرها الزعيم جون روس والدكتور جي بي إيفانز، يوردها كاتب في عام 1866 متحدثاً عن مجزرة كانت قد وقعت قبل نحو قرن، وعلى الرغم من غموض الرواية فمن الجلي وقوعها في وقت أسبق:

«الحقائق، على قلتها، مهمة. كان النظام وراثياً، وهو بهذا المعنى متميزاً، إذ نادراً في أوساط الهنود، ولم يحصل قطّ بين الشيروكي، أن اعتبرت السلطة حقاً عائلياً. برغم ذلك فقد تمتعت

(1) هايوود، «تاريخ تيسي الطبيعي والأبوريجيناني»، ص. 266 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

عائلة نيكوتاني – إذ بدا أنها عائلة أو عشيرة – بهذا الامتياز. إلى هذا فإن السلطة التي مارسوها لم تكن سياسية، كما لم يظهر أن الزعيم كان ينتخب من أوساطهم.

«عائلة نيكوتاني كانت جماعة روحية ودينية، وقف الناس أمامها بخشية عظيمة، حيث بدا أنها كمثل البراهمانيين في الهند. أما كيفية بلوغها سطوتها تلك وكم من الزمن حافظت عليها فيه، فلا يمكن التحقق منهما أبداً. فناؤهم بفعل مجزرة يكاد يكون كل ما يمكن اكتشافه حولهم. لقد غدوا متغطرسين وقحين ومستبدين فاسقين إلى درجة لا يمكن قبولها. لم يترددوا البتة من خلال الغش والعنف، معتمدين على امتيازاتهم الموروثة وعلى الخشية الغريبة التي يشيعونها، في تمزيق العلاقات الحميمة بين الزوج وزوجته حين تثير هذه رغباتهم. طالما نام الناس بصمت على ضيم مظالم واعتداءات هذه الجماعة المتعالية التي كرهوها كرهاً شديداً لكن خافوها كثيراً. أخيراً قام رجل جسور، ابن عائلة ذات نفوذ، بتدبير مؤامرة للقضاء على جماعة الكهنة. وكان الاستفزاز الأول خطف زوجة مدبر المؤامرة الشاب التي كانت متميزة بجمالها، وقد خطفت بالقوة واعتدي عليها من قبل أحد أفراد النيكوتاني بينما كان الشاب في رحلة صيد. حين عاد لم يجد أي صعوبة في بث الغضب الذي كان يعتمره، في

Twitter: @ketab_n

الآخرين. فكثيرون كانوا قد خبروا المعاناة ذاتها، وكثيرون كانوا خائفين من أنهم سيواجهون تلك المعاناة، ولم يكن ينقصهم سوى قائد. قائد يتجسد في شخص شاب شجاع كنا قد ذكرناه، فقام الناس تحت قيادته وقتلوا كل فرد من النيكوتاني، صغيراً كان أم كبيراً. هكذا هلكت جماعة سرية متوارثة، ومنذ ذلك لم يعد يُقبل في أوساط الشيروكي بالامتيازات المتوارثة»[1].

(1) د. دي جي ماك غوْوان، «الجماعات الهندية السرية»، «هيستوريكال ماغازين»، العدد العاشر، ص. 139، 1866. موريسانيا، نيويورك (م).

Twitter: @ketab_n

دواء الحرب السحري

كان لبعض المحاربين دواء سحري يحولون به أشكالهم إلى الهيئات التي يريدونها فيهربون حينذاك من أعدائهم. مرة وبعد عودة أحد هؤلاء المحاربين إلى دياره وجد مجموعة قوية من الأعداء تهاجم القرية الي كان جميع رجالها خارجين في رحلة صيد. كانت القرية قائمة عند الضفة الأخرى من النهر، لكن جدته كانت هناك، وقد قرر إنقاذها. بعد أن نزل في الماء وسار قليلاً، بحث حوله إلى أن وجد قوقعة بلح البحر[1]. بدوائه السحري قام بتحويلها إلى قارب، عبر على متنه إلى منزل جدته، ووجدها جالسة هناك تنتظر العدو كي يأتي ويقتلها. قام بصنع الدواء من جديد ووضع جدته في رأس يقطين صغير وثبته في حزامه. ثم تسلق شجرة محولاً نفسه إلى دجاجة أرض مستنقع، وبصيحة واحدة فرد جناحيه وطار إلى الجهة الأخرى من النهر، وهناك استعادا شكلهما الطبيعيين ومضيا في طريقهما عبر الغابة إلى قرية أخرى.

(1) ضرب من الرخويات (م).

Twitter: @ketab_n

كان ثمة محارب عظيم آخر من الشيروكي يُدعى «داسي غِيْيَا غي»، أو حذاء - الجزمة، على ما سماه البيض، وقد عاش قرب جدول هايتاور في جورجيا. كان قوياً جداً وقيل إن بوسعه رمي هاون طحن الذرة فوق بيت، ويستطيع بقواه السحرية أن ينقي النهر بقفزة واحدة. دواؤه الحربي كان زعانف أوكتينا وقوقعة سلحفاة حصل عليها من الشاوانو. في حرب الكريك قام بوضع هذه الزعانف في الماء واستحم بجسده بذلك الماء، كما أحرق قطعة من قوقعة السلحفاة ورسم خطاً أسود بالفحم حول رجاله، فلم يجرح أو يقتل أحد منهم.

بعض المحاربين العظماء امتلك دواءاً سحرياً يساعده على الغوص في الأرض أو تحت المياه للوصول إلى الأعداء وقتل أحدهم وانتزاع فروة رأسه، ثم الغوص في الأرض للعودة إلى الأصدقاء.

وعرف بعض قادة الحرب كيف يضع روحه في قمم الأشجار خلال المعركة، مما جعل قتله متعذراً حتى لو ضربه العدو. مرة، في إحدى المعارك ضد الشاوانو، وقف قائد الشيروكي أمام العدو مباشرة، مفسحاً المجال لمجموعة كاملة في أن ترمي عليه، لكنه لم يتأذى إلى أن أمر قائد الشاوانو، الذي كان يعلم بأمر دواء الحرب السحري هذا، في أن يقوم رجاله بالتسديد على الأغصان التي تعلو رأس الشيروكي. وحين فعلوا سقط قائد الشيروكي ميتاً.

Twitter: @ketab_n

وقائع بطولات شخصية

في حرب الشيروكي عام 1760، حسب ما يروي هايوود، حين كانت مجموعات صغيرة من الأعداء تندفع بغزواتها شرقاً فتقارب ساليسبوري، رُصدت مجموعة منها مؤلفة من ستة أشخاص أو ثمانية، حيث تمت مراقبتها وجرى تعقبها إلى أن شوهد أفرادها يدخلون كوخاً مهجوراً لقضاء الليل فيه. أطلق نداء الإنذار، وقبل طلوع الضوء بقليل حاصر البيض البيت، وتمترسوا خلف أكوام العلف وفي بعض المباني المنفصلة وذلك كي يتسنى لهم الإشراف على المدخل وعلى أعلى المدخنة الواسعة، ثم شرعوا بعد ذلك بإطلاق النار باتجاه السطح لإجبار الهنود على الخروج، حينها، وإذ أتى اللهب على عارضات السقف الخشبية، وبدا الموت، بالنار أو بالرصاص، محتماً، نادى أحد المحاربين المحاصرين على رفاقه قائلاً لهم إنه بدلاً من أن يموت الجميع من الأفضل التضحية بواحد منهم، وإنهم إن اتبعوا تعليماته فسوف ينجون فيما يموت هو دون غيره. واقترح أن

Twitter: @ketab_n

يقوم باختراق الحصار بمفرده فيخرج لإخماد نار الأعداء فيما يستعد أصدقاؤه للانطلاق إلى الغابة حين تنفد أسلحة البيض من الرصاص. وافق الأصدقاء وفُتح الباب، فاندفع خارجاً على نحو مفاجئ وراح يراوغ ويركض في خطوط متعرجة وقد نفدت كل الأسلحة من الرصاص الذي أطلق عليه قبل أن يسقط صريعاً مثخناً بالجراح. وفيما أخذ البيض يذخرون أسلحتهم، انطلق المحاربون الآخرون هاربين ونجحوا في بلوغ الغابة قبل أن يصحو المُحاصِرون من مفاجأتهم. ويضيف المؤرخ قائلاً: «كم عظيم هو الأسف الناجم عن بقاء اسم هذا البطل مجهولاً بالنسبة للكاتب، الذي كان سيذكره في وقائع البطولة والوطنية عند الشيروكي، في وقائع الثبات وتوقد الذهن في أوقات الخطر»[1].

وفي أكثر من مناسبة أظهرت النساء شجاعة قتالية متى تطلب الأمر منهن ذلك. في مطلع القرن الفائت كانت لا تزال تعيش بين الشيروكي امرأة أقدمت على قتل من صرع زوجها في واحدة من مواجهات الثورة[2]. نظراً لصنيعها هذا فقد عوملت باحترام وسمح لها بالانضمام إلى المحاربين في رقصة الحرب، حاملة بندقيتها وفأس التمهوك. وفي مخطوطة واينوهي ثمة

(1) هايوود، «تاريخ تنيسي الطبيعي والأبوريجيناليي»، ص. 239 (م).
(2) الثورة الأمريكية (م).

Twitter: @ketab_n

مروية تتحدث عن هجوم جرى على بلدة للشيروكي وعن مقتل زعيم البلدة على يد مجموعة محاربة معادية. زوجة الزعيم، التي كان اسمها كوهتاهلاته (غاتون لاتي، «القنب البري»)، حين رأت زوجها يسقط، انتزعت فأسه التمهوك وهي تصيح «اقتل! اقتل!» واندفعت نحو الأعداء بعنف جعل الشيروكي المتقهقرين يجددون المعركة بشجاعة عظيمة فيحققون نصراً حاسماً. قد يكون هذا سرداً مختلفاً للواقعة ذاتها.

في حملة روثرفورد[1] ضد الشيروكي في عام 1776، صمد الشيروكي بالقرب من ممر وايا الجبلي، في جبال نانتاهالا، فنشبت مواجهة ضارية خسر فيها الأمريكيون تسعة عشر رجلاً، برغم تمكنهم في النهاية من طرد العدو من تلك الأرض. بعد أن تقهقرت الفرقة الرئيسة من الهنود، شاهد الجنود هندياً بدا مُراقباً من خلف شجرة، فقاموا برميه على الفور وقتلوه، وحين اقتربوا من موضع سقوطه وجدوا أن الهندي ذاك هو امرأة كانت قد طلت نفسها بالخطوط كالمحاربين وتسلحت بالقوس والنبال. قبل أن تقتل كانت تلك المرأة قد أصيبت بفخذها فلم تتمكن من الانسحاب مع الآخرين.

(1) الجنرال غريفيث روثرفورد (1721– 1805) (م).

Twitter: @ketab_n

الروابي والنار الدائمة:
الأشياء المقدسة القديمة

يقول بعضهم إن الروابي بُنيت على يد جماعة مختلفة. ويقول آخرون إنها بنيت على يد أجداد الـ «آني – كيتو هواغي» القدماء كي تكون أساسات لدار بلدة، فتصير دور البلدات آمنة إذا ما جاءت السيول. كانت دار البلدة على الدوام تبنى على مستوى الأراضي المنخفضة قرب النهر وذلك كي يحظى الناس بأراض طرية يرقصون عليها ويلعبون الكرة ويكون بوسعهم النزول إلى الماء خلال الرقص.

حين كانوا يستعدون لبناء الرابية يشرعون برصف دائرة من الحجارة على سطح الأرض. ثم بعد ذلك يشعلون النار في وسط الدائرة ويضعون قرب النار جسد زعيم بارز أو كاهن كان قد توفي منذ فترة قصيرة – يقول بعضهم سبعة زعماء من عشائر مختلفة – بالإضافة إلى حجر «أولونسو تي»، وزعانف أفعوان أوكتينا أو قرنه، ريشة من الجناح الأيمن لنسر أو لـ «تلا نُوْوَا» ضخم كان يعيش في ذلك الزمن، وخرز من سبعة ألوان، الأحمر

Twitter: @ketab_n

والأبيض والأسود والأزرق والأرجواني والأصفر والرمادي المزرق. ثم يقوم الكاهن حينها باستحضار المرض كي يحل في كل هذه الأشياء، فلن يكون بوسع العدو إن غزا البلاد، حتى لو قام بإحراق وتدمير البلدة ودارها، أن يبقى حياً كي يرجع من حيث أتى.

ثم كانت الرابية بعد ذلك تُرفع بالتراب الذي تحضره النساء بالسلال، وفيما كن يُهلن التراب فوق الحجارة وأجساد رجالهن العظماء وفوق الأشياء المقدسة، كن يتركن موضعاً مفتوحاً حول النار في الوسط يُنزِلن فيه جذع سدر أجوف من دون نزع لحائه، فيحيط بالنار ويحميها من التراب. جذع السدر هذا كان يُقطع طويلاً بما فيه الكفاية لكي يبلغ السطح في داخل دار البلدة حين ينتهي بناؤه. كان التراب يُهال حول الجذع ويتم الانتهاء بسهولة من رفع الرابية، ثم تبنى دار البلدة عليها. وكان أحد الرجال، ويُدعى حارس النار، يقيم على الدوام في دار البلدة كي يوقد النار ويعمل على رعايتها. حين كان سيُقام رقص أو يُعقد مجلس كان يُنزل سيقاناً طويلة من تبغ الـ «إهيا غا»، الذي يسميه البعض «أتسيل – سون تي»، «صانع النار» (Erigeron canadense، أو شيخ

Twitter: @ketab_n

الربيع[1]) من خلال الفتحة في جذع السدر إلى النار في الأسفل. ثم يترك أطراف السيقان بارزة إلى الخارج ويجمع حولها نبات الأُشْنة[2] والصوفان[3]، ثم يؤدي الصلاة، وفيما يكون مؤدياً صلاته تلك تمتد النار عبر سيقان الـ «إهيا غا» حتى تبلغ الصوفان. ثم يضع حطباً، كي تغدو النار حين يكون الراقصون قد باتوا مستعدين، ناراً كبيرة تتوهج في دار البلدة. مع انتهاء الرقص يعود ويغطي الفتحة بالرماد، لكن تبقى النار على الدوام معتملة في الأسفل. في الزمان القديم، وقبل رقصة الذرة الخضراء بقليل، كانت تخمد كل النيران في القرية ويأتي جميع الناس ويحصلون على نار جديدة من دار البلدة. ذلك كان يقال له «أتسي لا غالونكو تي يو»، «النار الشريفة أو المقدسة». في بعض الأحيان عندما كانت النار تخمد في بيت من البيوت، كانت امرأة البيت تأتي إلى حارس النار، الذي يقوم بإشعال نار جديدة عبر حك ساق «إهيا غا» بالجزء السفلي من الفطر الشديد الجفاف الذي ينمو على أشجار الخرنوب.

(1) نبات من الفصيلة المركبة (م).

(2) الأُشْنة: نباتات من مستورات الزهر. تظهر في الأمكنة الرطبة (على الأشجار والصخور) أو في المياه الحلوة أو البحار، وهي لا تحتوي على مادة الكلوروفيل. معروف أيضاً بالطُحْلب (م).

(3) شيء يتخذ من فطر الصوفان رخوٌ يابس تقدح فيه النار (م).

Twitter: @ketab_n

ويقول بعضهم إن النار الخالدة هذه لم تكن موجودة إلا في الروابي الأكبر في «نيكواسي»، و«كيتو هوا» وفي بعض بلدات قليلة أخرى، وأنه حين كانت تضرم النار الجديدة هكذا، من أجل رقصة الذرة الخضراء، فقد كانت توزع منها النيران إلى القرى الأخرى. النار إلى ذلك كانت مشتعلة في أسفل هذه الروابي العظيمة، وحين أقام جنود الشيروكي معسكرهم بالقرب من «كيتو هوا» خلال الحرب الأهلية شاهدوا دخاناً ما زال يتصاعد من الرابية.

كان للشيروكي في أحد الأيام صندوق خشبي مربع الشكل لف بجلد ظبي، يودعون فيه أكثر أشياء دينهم القديم قداسة. قبيل كل حملة مهمة يحمله كاهنان، كل بدوره، ويحرسانه في المعسكر فلا يقترب منه عابث. وقد استولت قبيلة الديلاوير عليه منذ أكثر من مائة عام، وعلى إثر ذلك أهمل الدين القديم وحل بالأمة البلاء. وكان لديهم أيضاً غليون سلام عظيم، مصنوع من الحجر الأبيض، وفيه سبعة فروع مفتوحة فيمكن لسبعة رجال أن يتحلقوا حوله ويدخنون منه في وقت واحد خلال مجالس السلام التي يعقدونها. في بلدة كِيُوي القديمة كان لديهم طبل من

Twitter: @ketab_n

الحجر نحت على شكل سلحفاة، وقد كان معلقاً في داخل دار البلدة فيستخدم في كل رقصات البلدة المذكورة. وكان سكان القرى الأخرى في بلاد الشيروكي السفلى يستعيرونه أيضاً كي يستخدموه في رقصاتهم.

Twitter: @ketab_n

ربة البيت الجاهلة

ثمة شيخ توفيت زوجته فعاش وحيداً مع ابنه. في أحد الأيام قال لابنه الشاب: «نحن بحاجة إلى طاهية، فحري بك أن تتزوج». هكذا اتخذ الشاب زوجة وأحضرها إلى الدار. ثم قال والده: «علينا أن نعمل الآن معاً ونبذل ما بوسعنا لمساعدتها. فاذهب أنت إلى الصيد واحضر اللحم وسوف أعتني بالذرة، فيكون بوسعها حينذاك أن تطهو». مضى الشاب إلى الغابة يبحث عن غزال وخرج والده إلى الحقل كي يهتم بالذرة. حين عادا إلى البيت في المساء كانا جائعين، وقد وضعت المرأة أمامهما زُبْدِية فيها عصيدة الجوز (كانا تالو هي). بدت هذه الأخيرة غريبة بعض الشيء ، وحين تفحصها الشيخ جيداً وجد أن الجوز موضوع فيها بقشره. سأل الشيخ الزوجة الشابة: «لماذا لم تقشري الجوز ثم تسحني العصيدة بعد ذلك». فقالت: «لم أعرف أنه كان ينبغي تقشير الجوز». ثم قال الشيخ «لقد فكرت بالزواج من دون معرفة الطهي»، وطردها من البيت.

Twitter: @ketab_n

الرجل في جِذْل الشجرة

ذهب رجل يوماً ليتفقد حقل الذرة، فتسلق جِذْل شجرة باسقة ليشاهد على نحو أفضل. كان الجِذْل مجوفاً وقد بنى دب في أسفله عشاً وضع فيه جراءه. انزلق الرجل وسقط على الجراء، فأطلقت الأخيرة صرخة سمعتها الدبة الأم فجاءت ونزلت على الجِذْل ذيلها أولاً على النحو الذي تنزل فيه الدببة، لترى ماذا حصل. أمسك الرجل بقائمتيها الخلفيتين فخافت الدبة كثيراً وعاودت التسلق في الحال لتخرج من الجِذْل مجدداً جارة الرجل معها، وهكذا خرج هذا الأخير من داخل الجذل.

Twitter: @ketab_n

الصيادان الكسولان

ذات مرة ذهبت مجموعة من المحاربين في رحلة صيد طويلة في الجبال، وحين بلغ أفرادها منطقة تكثر فيها الطرائد أقاموا كوخاً من لحاء الشجر في مكان ملائم قرب ضفة النهر. في كل صباح بعد الفطور، كانوا يفترقون كل بمفرده، ويغيبون طوال النهار، إلى أن يعودوا في الليل كل بالطريدة التي تمكن منها. كان ثمة من بينهم رجل كسول وقد كان يمضي بمفرده في كل صباح كالآخرين، إلى أن يجد سفحاً مشمساً فيستلقي حينذاك إلى جانب صخرة لينام ويعود في الليل إلى المعسكر خالي اليدين، لكن بخف ممزق وحكاية طويلة عن ارتحاله طوال اليوم من دون العثور على طريدة. استمر ذلك إلى أن بدأ واحد من الآخرين بالاشتباه في حصول أمر غريب وجعل مهمته اكتشاف ما يجري. في الصباح التالي تبعه سراً عبر الغابة حتى شاهده يدنو من فسحة مشمسة، حيث جلس على صخرة كبيرة خالعاً خفه ليبدأ حفه بالصخرة إلى أن تملأه الثقوب. ثم يحل حزامه

Twitter: @ketab_n

ويستلقي قرب الصخرة وينام. قام مراقبه بإضرام النار بأوراق الأشجار اليابسة إلى أن زحفت ألسنة النار مقتربة من الرجل النائم الذي لم يفتح عينيه أبداً.

عاد المراقب إلى المعسكر وأخبر الآخرين بما رأى. زهاء وقت العشاء أقبل الكسول عائداً ومعه حكايته القديمة ذاتها عن نهار الصيد الطويل الذي لم تعبر من أمامه فيه أي طريدة. حين أنهى رواية قصته ضحك الآخرون جميعاً وسموه الرأس النعسان. أصرّ على القول إنه قضى النهار في تسلق سلسلة الجبال، وعرض عليهم خفه كي يشاهدوا اهتراءه، وذلك من دون أن يعلم أن النار كانت قد سفعت خفه ذاك خلال نومه حتى غروب الشمس. حين رأوا الخف المُسود ضحكوا من جديد، وقد أذهله الأمر كثيراً فعجز عن قول كلمة واحدة للدفاع عن نفسه. قال قائد المجموعة حينذاك إن كذاباً مثل هذا الكسول لا يمكن له أن يبقى معهم، ثم طرده من العسكر.

رجل كسول آخر كان يتودد لفتاة جميلة، غير أن الأخيرة لم تعره أي اهتمام، قائلة له إن من سيتزوجها ينبغي له أن يكون صياداً ماهراً وإلا فستبقى عازبة طوال حياتها. في أحد الصباحات ذهب إلى الغابة، وتمكن في ضربة حظ من اصطياد

Twitter: @ketab_n

غزال. رفعه فوق ظهره وحمله إلى القرية حيث عبر من أمام باب البيت الذي تعيش فيه الفتاة مع أمها. وحين غاب البيت عن نظره مضى في طريق ملتوية إلى الغابة من جديد وانتظر هناك حتى حلول المساء، ثم عاود الظهور والغزال على كتفه وتقدم في الطريق عابراً من أمام منزل الفتاة كما فعل في الصباح. عاود فعل الأمر باليوم التالي، ثم في اليوم الذي تلاه، حتى بدأت الفتاة تعتقد أنه يقوم بقتل كل غزال في الغابة. هكذا استعدت والدتها - النساء المسنات في العادة هن مدبرات الزيجات - ومضت إلى والدة الشاب لطلب الزواج.

حين وصلت وجرى الترحيب بها قالت: «يبدو أن ابنك صياد ماهر». فأجابتها: «لا، فهو نادراً ما يقتل شيئاً».

«لكنه كان مثابراً على قتل عدد كبير من الغزلان في الآونة الأخيرة».

«لم أشاهد أياً منها».

«لماذا إذن كان يحمل غزالاً ويعبر من أمام بيتنا مرتين يومياً على مدار الأيام الثلاثة الماضية».

«لا أعرف ماذا فعل بها، لكنه لم يأت بها إلى هنا أبداً».

Twitter: @ketab_n

حينها تأكدت والدة الفتاة من وجود خطأ ما. فعادت إلى البيت وأخبرت زوجها الذي مضى في إثر الشاب إلى الغابة حتى بلغ الموضع الذي يخبئ فيه جسد الغزال، الذي كان حينذاك قد تعفن وبات ينبغي التخلص منه.

Twitter: @ketab_n

الشيخان

ذهب شيخان إلى الصيد. أحدهما له عين مائلة إلى الأسفل وقد دُعي «أوك– كْوُوناغي تا»، «عين مائلة إلى الأسفل». والآخر له ذراع ملتوية الشكل وقد دُعي «أوك– كو سونتسوتي»، «القوس المنحني». قَتَل الرجلان غزالاً وطهيا اللحم في قدر. غمس الشيخ الثاني قطعة من الخبز في الحساء وأخذ يتلمظ بشفتيه فيما كان يأكل. فسأله الأول: «هل هو جيد؟».

«هايو! أوك– كْوُوناغي ستي – أجل، سيدي! إنه يجعل عين المرء مائلة».

فكر الشيخ الأول في نفسه قائلاً: «إنه يقصدني».

فقام بغمس قطعة خبز في القدر وتلمظ بشفتيه إذ تذوق الطعام.

سأله الشيخ الآخر: «هل تجده جيداً؟».

Twitter: @ketab_n

«هايو! أوك- كو سونتسوتيتي - أجل، سيدي! إنه يلوي ذراع المرء».

فكر الشيخ الثاني وقال في نفسه: «إنه يقصدني». حينذاك غضب غضباً شديداً وسدد ضربة إلى الشيخ الأول، ثم تصارعا إلى أن قتل واحدهما الآخر.

Twitter: @ketab_n

ريش النجم

محارب كان يهوى التجوال نزل منذ زمن بعيد إلى مستعمرة البيض في ناحية الشرق، وهناك شاهد طاووساً لأول مرة. فاجأه الريش الجميل الطويل وأبهجه، وتمكن، بعد أن قايض بعضاً من الأشياء الهندية القيمة التي بحوزته، من شراء ريشات قليلة منه حملها معه إلى الجبال وخبأها في وكر قندس عجوز تحت ضفة النهر، وذلك حتى بات مستعداً لاستخدامها. كي يصل إلى وكر القندس كان عليه أن يغوص تحت الماء.

ثم بدأ بعد ذلك في العمل سراً وصنع لنفسه غطاء للرأس تتصدره ريشات طاووس طويلة مائلة إلى الخلف، وحولها على الجانبين الريشات الأقصر. في أول رقصة تلت، ارتدى غطاء الرأس ذاك، وزعم أنه كان قد صعد إلى السماء وأن ما يرتديه فوق رأسه هو ريش النجم. كما أنه ألقى خطبة طويلة ادعى أنها رسالة تلقاها من أرواح النجم كي ينقلها إلى الناس.

Twitter: @ketab_n

احتار الجميع في أمر الريشات الجميلة، التي لا تشبه أياً من الريش الذي كانوا قد شاهدوه قبل ذلك. لم يشكوا أبداً في أنه كان قد صعد إلى السماء وحادث الأرواح. فغدا نبياً عظيماً وكان يبقى مختبئاً طوال اليوم في وكر القندس، وكلما عقد اجتماع ليلي من أجل رقصة ما أو مجلس، كان يظهر بينهم على نحو مفاجئ مرتدياً غطاء رأسه من الريش ذاك وملقياً على الناس رسالة جديدة من السماء. ثم كان يغادرهم بعد ذلك، مدعياً أنه صعد إلى الفردوس.

ذاعت شهرته وتقدمت مكانته بين جميع رجال السحر، إلى أن حدث أخيراً وذهب رجل ثان من الشيروكي إلى مستعمرات البيض وشاهد هناك طاووساً آخر، وعلم في الحال أن النبي كان زائفاً. عندما عاد بهدوء قام بإخبار بعض أصدقائه، فقرروا التحقيق في الأمر. حين جاء موعد الرقص في الليلة التالية كان النبي حاضراً كالمعتاد ومعه رسالة جديدة من النجوم. استمع الناس بوقار، ووعدوا في أن يطيعوا كل ما أمرهم به. ثم غادرهم قائلاً إن عليه العودة في الحال إلى السماء، لكن ما إن غادر الحلقة حتى تبعه المراقبون في الظلام وشاهدوه ينزل إلى النهر ويغوص تحت المياه. انتظروا هناك، غير أنه لم يصعد، فعادوا أدراجهم

Twitter: @ketab_n

وأخبروا الناس بالأمر. في الصباح التالي ذهبت مجموعة منهم إلى الموضع واكتشف أفرادها وكر القندس تحت ضفة النهر. غاص أحد الرجال تحت المياه ودخل إلى الوكر، وهناك وجد النبي جالساً وريش الطاووس إلى جانبه.

Twitter: @ketab_n

أغنية الدبة الأم

في أحد الأيام سمع صياد في الغابة غناء في كهف. اقترب واختلس النظر، فرأى دبة أماً تغني لجرائها وتعلمهم ما ينبغي أن يفعلوه حين يطاردهم الصيادون.

قالت الدبة الأم للجراء: «عندما تسمعون الصيادين قادمين نزولاً مع الجدول، غنوا حينها:

تسا غي، تسا غي، هْوِي لاهي

تسا غي، تسا غي، هْوِي لاهي

أعلى الجدول، أعلى الجدول، (ينبغي) أن تذهبوا،

أعلى الجدول، أعلى الجدول، (ينبغي) أن تذهبوا،

لكن إن سمعتم أيها الأطفال أنهم قادمون صعوداً مع الجدول، فغنوا حينها –

Twitter: @ketab_n

غِي إِيْ، غِي إِيْ، هْوِي لاهي

غِي إِيْ، غِي إِيْ، هْوِي لاهي

أسفل الجدول، أسفل الجدول، (ينبغي) أن تذهبوا،

أسفل الجدول، أسفل الجدول، (ينبغي) أن تذهبوا،

صياد آخر كان في الغابة ذات يوم ظن أنه سمع صوت امرأة تغني لطفل. مضى في إثر الصوت صاعداً إلى منبع الرافد إلى أن بلغ كهف في أسفل الآجام، وفيه كان ثمة دبة أم تهدهد صغيرها وتغني له أغنية الأطفال هذه، التي كان الـ «آني – تسا غوهي» يعرفونها قبل تحولهم إلى دببة:

ها – ماما ، ها – ماما ، ها – ماما ها – ماما ،

أودا هالي بي هي لونو، هي لونو،

أودا هالي بي هي لونو، هي لونو.

دعني أحملك على ظهري (أربع مرات)،

في الجانب المشمس، اذهب ونم،

في الجانب المشمس، اذهب ونم.

Twitter: @ketab_n

أغنية طفل، لإسعاد الصغار

ها وي يي – هيوْوِي ، ها وي يي – هيوْوِي ،

يو وي – يوْوِي هي ، ها وي يي هيو – أُوي ـــ

يا نو أوني غوهي تسانا سيها ،

إِي تي أُوني غوهي تسانا سيها،

يا نو نودونيلو تسا ناديسكا

ها وي يي – هيوْوِي ، ها وي يي – هيوْ وِي

يو وي– يو وِي هي ، ها وي يي هيو – أوي –

الدب سيء جداً، هكذا يقولون،

منذ زمن بعيد كان سيئاً جداً، هكذا يقولون،

الدب فعل هذا وذاك، هُم يقولون.

Twitter: @ketab_n

عندما يولد الأطفال: النِمْنِمة[1] والجُذْجُد[2]

النِمْنِمة الصغيرة هي رسولة الطيور، وهي تستطلع كل شيء. تنهض من نومها في الصباح الباكر وتجول بين بيوت القرية كلها وتعود بالأخبار لمجلس الطيور. عندما يولد طفل جديد ترى إن كان الوليد صبياً أو فتاة وتُعلم المجلس بذلك، فإن كان صبياً تنشد الطيور في كورس حزين: «واحسرتاه! صفارة السهم! قصبتاي[3] سوف تحترقان!»، لأن الطيور تعلم أن الصبي حين يكبر سوف يصطادها بواسطة بندقية النفخ[4] والسهام ويشويها على عود.

أما إذا كان الوليد فتاة، فستفرح الطيور وتنشد: «شكراً! صوت مدقة الهاون! في منزلها، حيث تكنس، سأتمكن من حك ريشي بالتأكيد»، ذلك أن الطيور تعلم بأنها سرعان ما

(1) أو الصعْو، وهو عصفور صغير جداً (م).
(2) دويبة على خلقة صغير الجراد وتُسمى صرار الليل (م).
(3) القصبة: مقدم الساق (م).
(4) بندقية النفخ: أنبوب تُطلق منه القذائف بالنفخ من خلال الفم (م).

Twitter: @ketab_n

ستتمكن من التقاط الحبوب المتناثرة حيث تسحن الفتاة الذرة وتعدها للطعام.

الجُنْدُب يفرح أيضاً حين يعلم أن فتاة قد ولدت، فيقول: «حمداً، سوف أغني في البيت الذي تحيا فيه». لكن إن كان الوليد صبياً، فحينذاك ينوح الجُنْدُب: «واحسرتاه! إنه سوف يرديني! إنه سوف يرديني! إنه سوف يرديني!» إذ أن الصبيان يصنعون سهاماً صغيرة يردون بها الجَدَاجد والجنادب[1].

حين يستعلم الشيروكي عن جنس المولود الجديد فإنهم يسألون: «أهو سهمٌ أم (وجبة) مُنخُل[2]؟»، أو «أهو مضرب كرة أم خبز؟».

(1) الجُنْدُب: جراد صغير يُعرف بالقبوط (م).
(2) مُنخل فيه الحبوب (م).

Twitter: @ketab_n

مُحاكي الغراب

بين جميع عرافي الشيروكي وساحراتهم فإن محاكي الغربان (كا لانو أهكِيلي سكي)، ذاك الذي يخطف روح المحتضر، هو أكثر من يوقع الرهبة في النفس. محاكو الغراب أولئك هم من الجنسين وليس ثمة من وسيلة للتعرف على الواحد منهم، رغم هيئاتهم المُسنة والذاوية، إذ أنهم أضافوا إلى حيواتهم أرواحاً كثيرة.

في الليل حين يكون هناك في القرية شخص مريض أو محتضر، يذهب محاكي الغراب إليه كي يأخذ روحه. يطير في الهواء ككتلة من نار، وذراعاه مبسوطان كمثل جناحين، فيومض الشرر في إثره ويهدر صوت كضجيج ريح قوية. خلال طيرانه، وبين هنيهة وأخرى، كان يطلق صيحة كنعيق الغراب وحين كانت صيحته تشق الهواء – ليس كمثل نعيق الغراب العادي – تصيب من يسمعها بالذعر، إذ يدرك السامع أن حياة أحدهم ستزهق عما قريب. وإذ يبلغ محاكي الغراب المنزل الذي يضم المحتضر،

Twitter: @ketab_n

يجد هناك آخرين من نوعه ينتظرون، وإن لم يكن ثمة طبيب يحرس ويكون ملماً بوسيلة إبعادهم، فإنهم يدخلون، غير مرئيين جميعاً، ويخيفون المريض ويعذبونه حتى الموت. وللقيام بهذا الأمر في بعض الأحيان فإنهم يرفعونه عن السرير، ويرمونه على الأرض، لكن أصدقاءه الموجودين حوله سيظنون أنه يجهد نفسه كي يتنفس فحسب.

بعد أن تقتله الساحرات يقمن بانتزاع قلبه ويأكلنه، فيضفن إلى أعمارهن أياماً بعدد الأيام التي أخذنها منه. لا أحد من الموجودين في الغرفة قد يتمكن من رؤيتهن، ولا أثر يظهر في الموضع الذي ينتزعن منه القلب، لكن وعلى الرغم من ذلك فإن القلب يختفي من الجسد. وحده الذي يملك الدواء السحري الملائم يمكنه تمييز محاكي الغراب، وإن بقي ذاك الذي يملك الدواء السحري هذا في الغرفة مع المريض فإن الساحرات المذكورات سوف يخفن من الدخول وينسحبن ما إن يشاهدنه، لأن من يجري التعرف عليه بهيئته الحقيقية ويكون من محاكيي الغربان، فإنه سوف يموت خلال سبعة أيام. مرة كان هناك رجل، يدعى «غونسكالي سكي»، يملك هذا الدواء السحري وقد كمن لمحاكي الغربان وقتل عدداً منهم. حين يعلم أصدقاء الشخص

Twitter: @ketab_n

المحتضر بأنه لم يعد هناك أمل فإنهم يحاولون على الدوام الإتيان بواحد من رجال السحر هؤلاء للبقاء في البيت كي يحرس الجثمان حتى يتم دفنه، لأن الساحرات ما كن ليقدمن على سرقة القلب بعد الدفن.

تشعر الساحرات الأخريات بالحسد من محاكي الغربان ويَخَفن من الدخول إلى البيت ذاته مع واحد، أو واحدة، منهم. أحد الرجال في إحدى المرات امتلك دواء سحرياً وأخذ يراقب قرب رجل مريض ورأى الساحرات الأخريات أولئك في الخارج يحاولن الدخول. فجأة سمعن صيحة محاكي غراب فوق رؤوسهن فتفرقن «كمجموعة من الحمائم إذ ينقض الصقر عليها». حين يموت أحد محاكي الغربان فإن الساحرات الأخريات المذكورات يقمن في بعض الأحيان بالانتقام، حيث ينبشن في الأرض كي يصلن إلى الجسد الميت وينكلن به.

في المحمية يُروى الآتي على أنه حدث بالفعل:

ذهب شاب في رحلة صيد وهو في طريقه إلى البيت هبط المساء وكان لا يزال بعيداً جداً عن القرية. أدرك الشاب أن هناك بيتاً لا تفصله مسافة طويلة عن الطريق وكان يعيش فيه شيخ وزوجته، فيمم شطر ذلك البيت سعياً خلف مكان ينام فيه حتى

Twitter: @ketab_n

الصباح. لم يجد أحداً في البيت حين بلغه. تفقد الـ «آسي»، ولم يجد فيه أحداً أيضاً. اعتقد أنهما ربما ذهبا لإحضار المياه، فتمدّد في ركن البيت البعيد لينام. بعد قليل سمع نعيق غراب في الخارج، وما هو إلا وقت قصير حتى دخل العجوز إلى الـ «آسي» وجلس قرب النار من دون أن ينتبه لوجود الشاب، الذي ظل جامداً في الركن المعتم. بعد برهة علا نعيق غراب في الخارج مرة أخرى، وقال الشيخ محدثاً نفسه: «الآن زوجتي قادمة»، ومن دون تأخير سرعان ما دخلت العجوز وجلست قرب زوجها. فأدرك الشاب حينها أنهما محاكيا غربان فدبّ به الخوف وبقي معتصماً بالصمت.

قال الشيخ لزوجته: «حسنٌ، كم حظاً أصبت؟». أجابته: «لا شيء، فقد كان هناك أطباء كثراً يراقبون. كم حظاً أصبت أنت؟». قال: «لقد أصبت ما ذهبت من أجله، ليس ثمة من سبب للفشل، غير أن حظك على الدوام كان عاثراً. خذي هذا واطبخيه ولنأكل شيئاً». أوقدت النار وشم الشاب حينها رائحة لحم يشوى أكثر حلاوة من أي لحم قد عرفه من قبل. اختلس النظر من عين واحدة، ورأى اللحم يشبه قلباً بشرياً يُشوى على عود.

ثم قالت العجوز لزوجها، على نحو مفاجئ: «من ذاك

Twitter: @ketab_n

الذي في الركن؟». قال الشيخ: «لا أحد». فقالت: «بلى، هناك شخص في الركن، إني أسمعه يغط في نومه»، وحركت النار حتى توهجت وأضاءت المكان كله، فظهر الشاب مستلقياً في الركن. ظل صامتاً وتظاهر بالنوم. أصدر الشيخ صوتاً من النار كي يوقظه، لكن الشاب ظل متظاهراً بالنوم. ثم تقدم الشيخ نحوه وهزه، فنهض وفرك عينيه كأنه كان نائماً طوال الوقت.

حينذاك كان النهار قد شارف على الطلوع وكانت العجوز في المنزل الآخر تعد طعام الفطور، غير أن الشاب سمعها تبكي وحدها. سأل الشاب الشيخ: «ما الذي يحمل زوجتك على البكاء؟». فقال: «أووه، لقد فقدت العديد من أصدقائها في الآونة الأخيرة وهي تشعر بالوحدة». لكن الشاب أدرك أنها تبكي لأنه كان قد سمعهما يتحدثان.

عندما جلسوا لتناول الفطور وضع الشيخ أمام الشاب زبدية فيها عصيدة الذرة وقال: «هذا كل ما لدينا – منذ زمن طويل لم نحصل على اللحم». بعد الفطور عاد الشاب واستأنف طريقه، لكن ما إن ابتعد قليلاً حتى ركض الشيخ في إثره ومعه حلية من خرز جميل وحين بلغه أعطاه إياه قائلاً: «خذ هذا، ولا تخبر أحداً عما سمعت ليلة البارحة، لأنني وزوجتي دائماً نتشاجر

Twitter: @ketab_n

على هذا النحو». أخذ الشاب الحلية، لكنه ما إن بلغ أول جدول حتى رماها في الماء ثم أكمل طريقه إلى القرية. هناك في القرية روى الحكاية كاملة، وانطلقت مجموعة من المحاربين مصطحبة إياه بغية قتل محاكيي الغربان. حين بلغوا المكان كان قد مضى سبعة أيام على الليلة الأولى التي قابلهما بها. وهناك وجدوا الشيخ وزوجته ميتين في البيت، وقاموا بإضرام النار كي تأتي على البيت وعلى الساحرين معاً.

Twitter: @ketab_n

ينبوع هيربيرت[1]

«من منبع الرافد الجنوبي لنهر سافانا لا يتجاوز نصف ميل واحد ليبلغ منبع مياه الميسيسيبي التي تجري في مناطق الوسط والمناطق العليا من أمة الشيروكي بانعطافة نحو الشمال الغربي، وإذ ينضم إلى أنهار أخرى، فهذه الأخيرة تنتهي في الميسيسيبي العظيم. النبع الأعلى يُدعى 'ينبوع هيربيرت ، تيمناً باسم مفوض قديم في الشؤون الهندية، وقد كان من البديهي أن يشرب الغرباء العابرون من مياهه، فيطفئون ظمأهم ويشبعون فضولهم، ويتسنى لهم حينذاك القول إنهم شربوا من المياه الفرنسية[2].

وقد أخبر بعض شعبنا ممن ذهب إلى هناك بدافع البقاء لفترة قصيرة لا أكثر، لكنه ونتيجة بعض المغريات والأمور الأخرى مدد فترة بقائه، أخبرَ، عبر الاحتفال أو الخرافة، أن للينبوع المذكور قيمة طبيعية ساحرة تجعل من يشرب منه عاجزاً عن مغادرة الأمة طوال سبعة أعوام. وسارع كل الفاسقين إلى تلقف هذه الفكرة

(1) Herbert107

(2) تلك المنطقة كانت واقعة تحت سيطرة الفرنسيين (م).

Twitter: @ketab_n

الخرافية كعذر لأسلوب حياتهم المنحلة، وذلك حين لم يحظوا بدعوة لائقة للبقاء في تلك البلاد، ومع مرور الوقت بات الأمر حقيقة مثلما وصل، كما لو جرى اعتناقه كمنطوق تلفظه وسيطة وحي دَلفي[1]. أحدهم جدف، لأن فتنة الينبوع كانت قد أفسدت حظه الحسن، آخر دان ضعفه لأنه شرب العرافة من مياهه، مُخالفاً بذلك شبهاته الدفينة الخاصة تجاهه، أحدهم أقسم أنه لن يتذوق هكذا سم خطير مرة أخرى، حتى ولو أُكره على النزول إلى الميسيسيبي سعياً خلف المياه، وآخر واسى نفسه معتبراً أن سنوات عديدة من السنوات السبع كانت قد انقضت، وتمنى لو يتذوق ماءه ثانية، حيث أنه حينذاك قد يقصر نفسه على المياه الأسطُقْسية[2]، حتى لو ألحت الحاجة عليه.

أولئك الذين امتلكوا عقولاً أكثر ادراكاً واسوا أنفسهم على حسابهم في الغالب، باعتباره مكاناً بارزاً ومُفضلاً، نظراً للاسم الذي حمله، ولأنه ينبوع حسن في موقع مناسب، فقد شرب كالمعتاد، جميع المسافرين قِرْبةً منه بحسب خيارهم. لكن الآن فإن معظم الرجال المرتحلين على ظهور

(1) وسيط الوحي هو كاهن أو كاهنة (عند الإغريق) يُعتقد أن الإله يجيب بواسطته عن سؤال حول أمر من أمور الغيب، ودلفي، نسبة إلى مدينة دلفي اليونانية القديمة أو إلى مَوْحى أبولو فيها (م).

(2) منسوب إلى أسطقس، نهر الجحيم الرئيسي (عند الإغريق) (م).

Twitter: @ketab_n

الخيل، حتى ولو ظمِئوا، وكذلك أبناء باخوس الأفذاذ، وأمام أكثر الإغراءات إلحاحاً للشرب من هناك، قد يقسمون على رهن الخمر المقدس طوال ما بقي من حياتهم العزيزة، بدل أن يجددوا على نحو مخز، أو يؤكدوا، خسارتهم لحريتهم، التي يتسبب بها ذلك الينبوع اللعين» – أدير[1]، «الهنود الأمريكيون»، ص. 231، 1775.

Twitter: @ketab_n

(1) Adair

أساطير محلية من نورث كارولينا

بالاستناد أولاً إلى الحقيقة القائلة إن الشيروكي ما زالوا يشغلون غرب نورث كارولينا، فالأساطير المحلية الموجودة في تلك المنطقة هي أكثر وفرة من تلك العائدة لباقي أراضي الشيروكي القديمة. للإطلاع على الأساطير الأكثر أهمية راجع القصص التالية: «سعي آغان–أونيتسي س خلف الأوكتينا»، «آتاغا هي»، «حامل القنب»، «ينبوع هيربيرت»، «كانا ستا»، «علقة تلانوسي يي العظيمة»، «السترة الصفراء العظيمة»، «النوني هي»، «الغارة على تيكوالي تسي»، «دور البلدات المنقولة»، «الجن المدافعون عن نيكواسي»، «الأو تسون تا»، «تسول كالو»، «تسوْوي ناهي»، «الأو تلون تا».

«أكوي تي يي»: موضع قرب نهر توكاسيجي[1] في مقاطعة جاكسون، بين جدول ديك[2] والنهاية العلوية لنفق كُوْوِي[3].

---

(1) Tuckasegee
(2) Dick
(3) Cowee

Twitter: @ketab_n

حسب ما تفيد به المرويات التقليدية فقد كان هناك في ذلك النهر مسخ مائي خطيراً. معنى الاسم ضائع.

«أتسي لا- وا إِيْ»: «نسيبة النار»، قمة جبل، ويقال لها أحياناً هضبة الأفعى المجلجلة، إلى الشرق من نهر أوكونالوفتي[1] وعلى بُعد نحو ميلين إلى الشمال الشرقي من بلاد الشيروكي أو الهضبة الصفراء، في مقاطعة سواين[2]. سُميت على هذا النحو لأن الحكاية تروي أن كرة من نار كانت قد شوهدت مرة وهي تطير في الهواء من ناحية هايلاندز[3]، في مقاطعة مايكون[4] وتحط على هذا الجبل. يعتقد الهنود بأنها كانت أولونسو تي، حيث كان صاحبها قد أودعها في مخبأ على قمة الجبل، فأخذت بعد موته تطلع في الليل كي تبحث عنه.

«الصخرة السوداء»: قمة عالية جداً وجرداء في ناحية منبع جدول سكوت[5]، شمال شرقي ويبستر[6]، عند حدود مقاطعتي جاكسون وهايوود. هذه القمة المذكورة أم قمة هضبة جونز التي

---

(1) Oconaluftee
(2) Swain
(3) Highlands الأراضي المرتفعة
(4) Macon
(5) Scott
(6) Webster

Twitter: @ketab_n

تجاورها، والتي توازيها ارتفاعاً، يعرفها الشيروكي باسم «أون وادا- تسو غيلاسون»، «حيث تمت إزالة المخزن»، وذلك تيمناً بصخرة كبيرة مسطحة كانت محمولة على أربع صخرات أخر لتبدو كمثل مخزن (أونـوادا لي) قائم على أعمدة. كانت تلك الصخرة فيما مضى تحتل موقعاً بارزاً على القمة، إلى أن سقطت بفعل صاعقة منذ نحو خمسين عام.

«جدول بافالو[1]، غرب»: رافد من نهر تشيُوا[2]، في مقاطعة غراهام. اسمه بلغة الشيروكي «يانسا إيْ»، «مكان الجاموس»، وهو اسم مستمد من حكاية تقليدية تقول إن جاموساً كان قد عاش تحت المياه عند مصبه.

«تشيُوا الأعلى»: جبل أجرد عند منبع نهر تشيُوا، على الحدود بين مقاطعتي غراهام ومايكون. هذه القمة وقمة سويم[3] الجرداء التي تجاورها أطلق عليهما اسم «سيهو اتي بي»، «مكان الزنبور[4]»، تيمناً بزنبور مسخ، كان في السابق، حسبما تروي الحكاية، قد أقام وكره هناك، حيث أمكن رؤيته طائراً فوق قمم الأشجار أو مستلقياً تحت أشعة الشمس في المواضع الجرداء، وقد كان ضارياً جداً فطرد كل من

(1) جاموس
(2) Cheowa
(3) Swim
(4) الدبور

Twitter: @ketab_n

قارب الجبل. الزنبور ذاك اختفى أخيراً.

«داكـوا إِيْ»: «مكان داكـوا»، في اللغة الفرنسية النهر الواسع، وهو يقع على بعد ستة أميال فوق ينابيع وارم[1] في مقاطعة ماديسون، وعلى بعد ثلاثين ميلاً في أسفل أشفيل[2]. وقد قيل أن داكوا، أو سمكة مسخ، كانت قد عاشت في المياه عند ذلك الموضع.

«دا ناوا– (أ) سا تسونيي»: «معبر الحرب»، وهو مخاضة في نهر تشيُوا على بُعد نحو ثلاثة أميال في أسفل روبنسفيل[3]، بمقاطعة غراهام. فرقة محاربة معادية من الشمال، أفرادها على الأرجح من الشاوانو أو الإيروكوا، وبعد أن قتلت رجلاً قرب نهر تشيُوا، قامت بمتابعة طريقها وعبرت النهر من هذا الموقع.

«داتلي ياستا إِيْ»: «المكان الذي سقطا فيه»، على نهر توكاسيجي، عند الانحناءة فوق ويبستر في مقاطعة جاكسون، حيث قامت في السابق بلدة «غانسا غي» (غوناساوغا[4]) القديمة. أفعوانا أوكتينا كبيرين، التف أحدهما على الآخر

(1) دافئ
(2) Asheville
(3) Robbinsville
(4) Gonasauga

Twitter: @ketab_n

وكأنهما في عراك، شوهدا مرة هناك وهما يرتفعان من حفرة عميقة في النهر ثم يعاودان السقوط في المياه.

«داتسي بي»: «مكان داتسي»، في أعلى جدول إيغل[1] مباشرة، عند نهر تنيسي، بين مقاطعتي غراهام وسواين. دعي هكذا تيمناً بمسخ مائي تقليدي، يحمل الاسم ذاته، قيل إنه كان يعيش في حفرة عميقة بالمياه.

«ديغال غون بي»: «المكان الذي يتكومون فيه»، سلسلة من الروابي الحجرية موزعة على جانبي الطريق في أسفل الطرف الجنوبي لنهر شيبُوا في مقاطعة غراهام. هذه الروابي تمتد في الطريق على مسافة أميال عدة، وذلك من أسفل جدول سنتيتلا إلى جدول سليك روك[2] تقريباً، على بعد نحو ميل من نهر تنيسي الصغير، كما يمتد غيرها إلى الجنوب من روبنسفيل، على مقربة من المكان حيث تعبر الطريق سلسلة جبال فالي تاون[3] في مقاطعة الشيروكي.

«ديدا سكاستي بي»: «حيث كانوا خائفين من بعضهم بعض»، وهو موضع عند الجانب الشرقي لنهر تنيسي الصغير،

(1) Eagle نسر
(2) Slick Rock الصخرة الملساء
(3) Valleytown

Twitter: @ketab_n

على مقربة من مصب جدول ألاركا[1] في مقاطعة سواين. وكان قد قُرر، في فترة ما قبل الترحيل، إقامة مباريات كرة بذلك المكان بين فريقين متنافسين من كوالا وفالي تاون، وقد ألغيت تلك المباريات نظراً للخوف المتبادل بين الفريقين من بعضهما بعض.

«ديسغا غيستي يي»: «المكان حيث يقضمون»، وهو موضع حيث تعبر الطريق النازلة من الطرف الجنوبي لنهر نشيبُوا فرعاً صغيراً يمتد لنصف المسافة بين جدولي «كوكرام» و«يلو» في مقاطعة غراهام. الهنود العابرون من هناك يقضمون أغصان أجمات الغار، لاعتقادهم بأنهم إن لم يفعلوا ذلك فسيلاقون العثرات قبل عبورهم إلى سلسلة الجبال التالية. على مقربة من الموضع المذكور ثمة أيضاً رابية من الحجارة يقوم كل عابر بإضافة حجر إليه.

«دودون ليكسون يي»: «حيث كسرت ساقيها»، موضع عند الطرف الشرقي لنهر توكاسيجي في مقابل مصب نهر كولووهي، وذلك على بعد أميال قليلة فوق ويبستر بمقاطعة جاكسون. الاسم يوحي بمروية تقليدية يبدو أنها فقدت.

---

(1) Alarka

Twitter: @ketab_n

«دولاستون بي»: «مكان الكِسْرَة[1]»، هو قرية سابقة إلى جانب نهر نوتلي في مقاطعة الشيروكي، قرب حدود جورجيا. جون باتلر، أو «تسان-أوغا سيتا» (جون الكريه)، قائد فريق الكرة الذي سبق وعاش هناك، قال لرجاله بازدراء، بعد أن هزموا في مباريات للكرة، إنهم لا يساوون كِسرة فخار.

«دونيدو لالونيي»: «حيث صنعوا السهام»، هو موضع عند جدول سترايت[2]، ومجرى فوار من مجاري نهر أوكونالوفتي، يقع على مقربة من قمة كاتالوتشي الجلبية في مقاطعة سواين. وكانت مجموعة محاربة من الشاوانو قادمة لمواجهة الشيروكي، وبعد أن اجتازت جبال سموكي، توقفت هناك كي تُعد السهام.

«النهر الفرنسي الواسع»: يشيرُ كاتبٌ في مجلةٍ إلى أن الهنود أطلقوا على هذا المجرى المائي اسم «نهر التسابق». الأمر صحيح على نحو جزئي فقط. إذ أن الشيروكي لم يطلقوا اسماً على النهر كله، لكنهم أطلقوا على المنطقة التي يجري بها بالقرب من أشفيل اسم «أون- تا كي ياستي بي»، «حيث يتسابقون». وهم يترجمون اسم المدينة بـ «كاسدو بي»، «مكان الخرائب».

---

(1) كِسرة من إناء خزفي (م).
(2) Straight

Twitter: @ketab_n

«غاكاتي يي»: «مكان التحرير»، وهو انحناءة جنوبية لنهر توكاسيجي على بعد ثلاثة أميال فوق مدينة برايسون[1] بمقاطعة سواين. وقد يستخدم الاسم في بعض الأحيان بصيغة الجمع، «ديغا كاتي يي»، «مكان إطلاقهم أحراراً». في واحدة من حروبهم القديمة قام الشيروكي متكرمين بإطلاق بعض السجناء في ذلك المكان.

«غاتوتي يي»: «مكان بناء البلدة»، قرب منبع جدول سانتيتلا[2]، إلى الجنوب الغربي من روبنسفيل في مقاطعة غراهام. في أعلى منحدرات جبل ستراتون[3] الأجرد المجاور، ثمة «منبسط مرتفع» حيث شرع الناس مرة في بناء قرية، لكنهم فروا خائفين بعد أن سمعوا جلبة غريبة، اعتقدوا أنها صادرة عن أفعوان أوكتينا.

«غي لي – دينيهون يي»: «حيث تعيش الكلاب»، موضع عميق في نهر أوكونالوفتي، بمقاطعة سواين، على بعد مسافة قصيرة فوق التل الأصفر (الشيروكي) وفي أسفل الكومة مباشرة. سمي الموضع المذكور على هذا النحو استناداً على حكاية تقليدية

---

(1) Bryson
(2) Santeetla
(3) Stratton

Twitter: @ketab_n

تخبر عن «كلبين أحمرين» شوهدا مرة وهما يلعبان على الضفة. كان من المفترض أنهما يعيشان تحت المياه.

«غيسيهون يي»: «حيث تعيش الإناث»، موضع عند نهر توكاسيجي، على بعد نحو ميلين فوق مدينة بريسون بمقاطعة سواين. ثمة حكاية تقليدية تقول إن أفراد جماعة من «البشر البيض» شوهدوا هناك وهم يغسلون ثيابهم في النهر ثم ينشرونها على الضفة كي تجف. وقد افترض أن يكون هؤلاء على الأرجح عائلة الـ «آغيس – إي غوا»، أو «الأنثى العظيمة»، الروح التي يستحضرها السحرة.

«جرد غريغوري»: قمة عالية في جبال سموكي العظيمة عند الحدود الغربية لمقاطعة سواين بمحاذاة تنيسي. الشيروكي يسمونها «تسيستو يي»، «مكان الأرنب». للأرانب هنا في هذه القمة دار بلدة، وهنا عاش زعيمهم، الأرنب العظيم، حيث كان الناس في الأزمنة السالفة يشاهدونه. كان كبيراً بحجم غزال، وكانت جميع الأرانب الصغيرة من رعاياه.

«جرد جوانا»: جبل أجرد قريب من منبع نهر فالي، عند الحدود بين مقاطعتي غراهام وشيروكي. أطلق عليه اسم «دِيا هالي يي»، «مكان العَظاءة»، تيمناً بعظاءة تقليدية عظيمة، لها

Twitter: @ketab_n

حلقوم متلألئ، كانت تلازم المكان وكانت تُشاهد باستمرار وهي تشمس نفسها على المنحدرات الصخرية.

«حقول جوتاكولا القديمة»: موضع جردي بمساحة قد تبلغ مئة أكر[1] على منحدر جرد تنيسي (تسول كالو تسونيغون يي) عند أغزر منبع لنهر توكاسيجي بمقاطعة جاكسون، في سلسلة الجبال حيث تفترق حدود مقاطعات هايوود وجاكسون وترانسيلفانيا. المارد «تسول كالو»، أو جاتاكولا كما حرف البيض اسمه، اتخذ مسكنه في الجبل، وحسب أسطورة محلية سادت في أوساط البيض، أسطورة قيل إنها استمدت من الهنود، فقد نشأ الموضع الجردي ذاك نتيجة أعمال قطع أشجار قام بها بهدف الزراعة. لبعض المسافة قدماً نحو الغرب، على الضفة الشمالية لتفرع كاني المائي، وعلى بعد نحو ميل فوق جدول موسى وربما على بعد عشرة أميال فوق ويبستر، في المقاطعة ذاتها، هناك صخرة جوتاكولا، البلاطة الضخمة من الحجر الصابوني والتي تحوي نقوشاً غليظة، هي، وحسب المروية ذاتها، خدوش سببها المارد حين قفز من مزرعته على الجبل إلى الجدول في الأسفل.

(1) مقياس للمساحة يساوي 4840 ياردة مربعة أو نحو أربعة آلاف متر مربع (م).

Twitter: @ketab_n

«كال – ديتسي يونيِي»: «حيث توجد العظام»، هو وَهْد عند الطرف الشمالي لنهر تشيُوا، فوق مصب جدول إيست بافالو مباشرة، بمقاطعة غراهام. في الزمن السالف، كان اثنان من الشيروكي قد قُتلا في هذا الموضع على يد العدو، وظل مصيرهما مجهولا لفترة طويلة تلت، إلى أن عثر أصدقاؤهما على عظامهما منثورة في الوَهْد.

«نانتاهالا»: نهر وسلسلة جبال شديدة الانحدار في مقاطعة مايكون. الاسم هو تحوير لـ «نون دايي لي»، الذي يشير إلى قرية سابقة على مقربة من منبع جدول بريرتاون[1]، حيث قام دار البلدة على جهة النهر الغربية قرب جاريتس[2] الحالية. العبارة تعني «الشمس الوسيطة»، ما يعني «شمس منتصف النهار»، وهي مشتقة من «نوندا»، «شمس»، و «أيِي لي»، «متوسط»، وهي تشير إلى حقيقة أن الجروف العالية على طول مجرى النهر تعمل على حجب الأشعة المباشرة للشمس حتى حلول الظهيرة تقريباً. ومن فكرة خاطئة ظنته مشتقاً من عبارة «أونوتي»، «حليب»، تم تصوره على نحو خيالي بأنه «مركز ثدي المرأة»، أو «صدر البتول»، إلخ.

---

(1) Briertown

(2) Jarretts

Twitter: @ketab_n

الأساطير تقول إن هذا الوادي مرصود من قبل الـ «أُوْ تسون تا». وكما توحي شدة انحدار الجروف الصخرية على طول مجرى النهر، فقد رُوي أن صياداً شهيراً عاش في البلدة القديمة يدعى تساستا وي، كان معتاداً على الوقوف على قمة جُرُف عال يشرف على القرية حيث يُلقي على سطح بيته من هناك كبد غزال قتله للتو، فيتسنى لزوجته حينذاك طهيه، قبل أن تقوم بما تبقى من الوقت بانتظار نزول زوجها من الجبل.

«نوغاتسا ني»: سلسلة جبلية في أسفل التل الأصفر (الشيروكي)، على نهر أوكونالوفتي بمقاطعة سواين، وقد قيل إنهاذ جن الـ «نوني هي». العبارة هي مصطلح قديم يعني سلسلة جبلية عالية بمنحدر تدرجي طويل.

«كـوالا»: موضع كان مكتب بريد ومحطة تجارية سابقة في مقاطعة جاكسون، على الحدود الحالية لمحمية الشيروكي الشرقية، ما يفسر تسميته في بعض الأحيان محمية كوالا. يسمى في لغة الشيروكي «كـوالي»، أو «كوالويي» في صيغة ظرف المكان. حسب ما يروي الكابتن تيريل، الذي سبق وكان تاجراً هناك، فقد سمي هذا الموضع بالاسم المذكور تيمناً بـ «كوالي»، أو «بوللي»، المرأة الهندية العجوز التي عاشت هناك منذ نحو ستين عام.

Twitter: @ketab_n

«ساليغو غي»: «مكان السلحفاة»، وهو موضع عميق في نهر أوكونالوفتي على بعد نحو نصف ميل في أسفل جدول أدامس، قرب ويتيير[1] في مقاطعة سواين، وقد قيل إنه مسكن سلحفاة هائلة.

«سْكْوان - ديغو غون يي»: تعني «أسكوان - ديغو غون يي»، «حيث يقبع الإسبان في المياه»، على جدول سوكو، فوق بداية جدول رايت مباشرة، في مقاطعة جاكسون. كانت مجموعة من الإسبان، حسب مروية تقليدية، تتقدم في الجبال حيث قام الشيروكي بمهاجمتها في هذا الموضع وقاموا برمي أحد هؤلاء الإسبان (ميتاً؟) في مجرى المياه.

«ممر سوكو الجبلي»: «أهالو نا»، «أَ هالونون يي»، أو «أُوني هالو نا»، وتعني «مكمن»، أو «حيث نصبوا كميناً»، هو أحد الشعب الجبلية عند منبع جدول سوكو، على الحدود بين مقاطعتي سواين وهايوود. الطريق من نهر بيجون يعبر هذا الممر الجبلي، وقد اعتاد الشيروكي في الأزمنة السالفة على إبقاء مراقبين في المكان كي يرصدوا تقدم الأعداء من الشمال. والمناسبة التي منحته هذا الاسم هي قيام الشيروكي بنصب كمين هناك، تحت

(1) Whittier

Twitter: @ketab_n

الممر الجبلي مباشرة، في جهة هايوود، لمجموعة غازية كبيرة من الشاوانو، حيث قاموا بقتلهم جميعاً ما عدا واحداً عملوا فيما بعد على قطع أذنيه، حسب عادة شائعة، وأخلوا سبيله كي يذهب ويُعلم شعبه بما حدث.

«الهندي الواقف»: قمة جرداء عالية عند أقصى منابع نهر نانتاهالا في مقاطعة مايكون. هذا الاسم هو ترجمة لأحد أسماء الشيروكي، «يون وي – تسولينون يي»، «حيث وقف الرجل» (أصله «يو نوي – ديكاتاغون يي»، «حيث يقف الرجل»)، وقد أطلق على هذه القمة نظراً لوجود صخرة ذات شكل متميز كانت في السابق ناتئة من القمة الجرداء المذكورة، غير أنها الآن تكسرت. مع خفوت الذاكرة القديمة، شاعت حكاية تتحدث عن كائن غامض شوهد مرة واقفاً على قمة الجبل.

«ستيكوْوا»: موضع عند نهر توكاسيجي، فوق ويتيير مباشرة في مقاطعة سواين، وهو يعرف أكثر باسم مزرعة توماس، إذ أقام فيه في السابق الكولونيل دبليو إتش توماس، وكيل بلاد الشيروكي الشرقية على مدى فترة طويلة. المصطلح الصحيح هو «ستيكا يي»، اسم قرية قديمة كانت تقوم في المكان، كما قرية أخرى عند جدول يحمل الاسم ذاته في

Twitter: @ketab_n

مقاطعة رابون، بولاية جورجيا. وكانت العبارة قد ترجمت على نحو خاطئ إلى «الشحم القليل»، من «أوسدي غا»، أو «أوسدي»، «قليل»، و «كا إيْ»، «شحم»، أو «زيت»، غير أن معناها الحقيقي يبقى ضائعاً.

«سوانانُوْوا»: نهر ينضم إلى النهر الفرنسي الفسيح[1] في أشفيل، ويقوم عند منبعه الممر الجبلي في السلسلة الزرقاء[2]. وكان كاتب في مجلة قد ترجم هذا الاسم إلى «الجميل». غير أن العبارة، إلى ذلك، هي تحريف لـ «سُوْوَا لي - نونا (- هي)، «درب سُوْوالي»، الاسم الذي يطلقه الشيروكي ليس على المجرى بل على الدرب الذي يعبر الممر الجبلي نحو بلاد الـ «آني - سُوْوالي»، أو الـ «تشيرو».

«تسي سْكُونسدي - أدسيستي يي»: «حيث قتلوا طائراً صغيراً[3]»، موضع قريب من منبع جدول ويست بافالو[4]، جنوب غرب روبنسفيل في مقاطعة غراهام. ثمة درب يعبر السلسلة الجبلية بالقرب من هذا المكان، الذي أخذ اسمه من رجل كان قد قُتِل هناك على يد مجموعة محاربة معادية في أيام القتال السالفة.

---

(1) French Broad
(2) The Blue ridge
(3) رجل يُدعى طائراً صغيراً (م).
(4) West Buffalo الجاموس الغربي (م).

Twitter: @ketab_n

«تسو دينونتي يي»: «مكان الرمي»، هو موضع قامت فيه قرية سابقة عند انحناءة على الجانب الغربي لنهر نانتاهالا، ضمن حدود مقاطعة مايكون بالتمام. اسمه استُمِد من حكاية تروي أن شخصاً من الشيروكي كان مُطارداً من قبل العدو قام برمي معداته هناك.

«تسو كيلونون يي»: «حيث حط»، موضعان جرديان صغيران على طرف الجبل، عند منبع جدول ليتل سنو بيرد[1]، جنوب غرب روبنسفيل في مقاطعة غراهام. كائن غامض، له شكل مارد ورأس يومض كالشمس، شوهد مرة وهو يطير في الجو، ثم يحط في هذا المكان، ويقف لبعض الوقت محدقاً في منظر الطبيعة. ثم طار بعد ذلك، وحين قدم الناس بعدها ليشاهدوا، وجدوا عشب الأرض حيث وقف وقد احترق. هم لا يعرفون من كان ذلك الكائن، لكن بعضهم يعتقد أنه ربما كان الشمس.

«تسولا سينون يي»: «حيث توجد آثار الأقدام»، عند نهر توكاسيجي على بعد نحو ميل فوق جدول دييب[2] في مقاطعة سواين. على صخرة هناك، وقد نُسفت الآن بغية إفساح الطريق لمرور خط السكة الحديد، كان ثمة دمغات قيل أنها آثار أقدام للمارد «تسول كالو» ولغزال.

(1) طائر الثلج الصغير (م).
(2) Deep عميق (م).

Twitter: @ketab_n

«تسوندا نيلتي يي»: «حيث طالبوه بتسديد الدَين»، هو موقع تخييم جيد على الجانب الشمالي من جدول ليتل سانتيتلا، نحو نصف المسافة صعوداً إلى الغرب من روبنسفيل، في مقاطعة غراهام. في هذا المكان قام صياد مرة بقتل غزال، وقد قام الآخرون معه في المجموعة بمطالبته به كي يكون بمثابة دفعة لتسديد ديناً لهم عليه. الشيروكي في العادة يطلقون على الجدول الاسم ذاته.

«تسوتا غا أُوْوِيون إيْ»: «جدول الدجاجة»، نبع شرقي غزير من منابع نهر نانتاهالا، يتقدم لمسافة أربعة أميال تقريباً في المنطقة الواقعة فوق رافد كلير[1] في مقاطعة مايكون. سمي هكذا من حكاية تروي أن بعض الصيادين المعسكرين هناك سمعوا جلبة كمثل نقنقة دجاج متواصلة تصدر من فوق صخرة شاهقة في أعلى النبع.

«تسوتا تسيناسون يي»: «حيث تدوم»، هو موضع عميق في المياه عند مصب جدول كوكرام التابع لنهر تشيُوا في مقاطعة غراهام، حيث تدور دوامة يقال إن مسببها هو جاموس يحيى تحت المياه في هذا الموضع، وذلك بعد أن كان يعيش في سالف الزمن عند مصب جدول ويست بافالو[2]، قدماً في أعلى النهر.

(1) Clear نقي (م).
(2) الجاموس الغربي (م).

Twitter: @ketab_n

«جرد توسكويتي»: جبل أجرد عند منبع جدول توسكويتي، إلى الجهة الشرقية من هايسفيل في مقاطعة كلاي[1]. الاسم بلغة الشيروكي هو «تسوْوا – يوني يتسون يي»، «حيث ضحكت كلاب الماء»، وذلك في إشارة إلى كلب الماء في أليغينييس[2] الجنوبية، ذاك الكلب الذي يُدعى أيضاً في بعض الأحيان جرو الطين، أو مَرِح الجحيم الصاخب، في كونه عظاءة برمائية ضخمة أو سمندلاً[3] من نوع «مينوبوما»، مداوماً في المياه الطينية. حسب ما تروي القصة، كان صياد في إحدى المرات يعبر الجبل خلال موسم شديد الجفاف، وقد سمع أصواتاً، فزحف بصمت نحو المكان الذي كانت الأصوات تنبعث منه، ونظر خلسة نحو إحدى الصخور، فرأى كلبي ماء يسيران معاً على الدرب بواسطة قوائمهما الخلفية، ويتحدثان خلال مسيرهما. وكانت بِركتهما قد جفت وكانا في طريقهما نحو نهر نانتاهالا. وفيما كان الصياد يسترق السمع قال أحدهما للآخر: «أين هي الماء؟ أنا في غاية الظمأ حتى أن مئزري (اللغد[4]) بدأ ينحني إلى الأمام»، ثم ضحك كلبا الماء بعد ذلك معاً.

---

(1) Clay

(2) Alleghenies

(3) عظاءة خرافية زُعم أنها قادرة على العيش في الماء (م).

(4) اللغد، أو الغبغب: لحم متدل تحت الحنك أو حول الذقن (م).

Twitter: @ketab_n

«أوكتي نا- تسوغانون تاتسون يي»: «حيث عَلِق أفعوان الأوكتينا»، موضع عند نهر توكاسيجي، على بعد نحو ميلين في أعلى جدول دييب، قرب مدينة برايسون في مقاطعة سواين. ثمة حكاية تروي أن أوكتينا كان يحاول التقدم صعوداً نحو أعلى النهر، عَلِق في هذا الموضع، وخلال محاولاته جاهداً شق طريقه انتزع بعض الصخور الكبيرة التي تقبع الآن في قاع النهر، كما ترك خدوشاً عميقة على صخور أخرى على طول الضفة.

«أوكتي نا - أوتانسي ناستون يي»: «حيث دَب أفعوان الأوكتينا»، هي صخرة كبيرة في مزرعة هيات[1] عند الضفة الشمالية لنهر توكاسيجي وعلى بعد نحو أربعة أميال فوق مدينة برايسون في مقاطعة سواين. في القاع الصخري لمجرى المياه وعلى امتداد الصخور إلى جانب المجرى، ثمة انخفاضات متموجة قيل إن أفعوان أوكتينا كان قد تسبب بها خلال صعوده إلى أعلى النهر.

«أوتلاسغاستي يي»: «حيث خدشوا»، موضع عند منبع جدول هيات، التابع لنهر فالي في مقاطعة الشيروكي. حسب ما تروي إحدى حكايات الصيد، فإن كل حيوان حين يبلغ ذلك الموضع كان معتاداً على خَدش الأرض مثلما يفعل الديك الرومي.

---

(1) Hyatt

Twitter: @ketab_n

«رافد انتقام»: رافد جنوبي من روافد نهر فالي في مقاطعة الشيروكي. وقد أطلق الاسم المستوطنون الأوائل هناك وذلك تيمناً بعجوز هندية كانت تحيا في المكان، وقد لقبها أولئك المستوطنون بـ «انتقام» تماشياً مع نزق نظراتها. يطلق الشيروكي على المنطقة اسم «غانسا تي يي»، «مكان السلب»، إذ أنهم كانوا قد سلبوا تاجراً هناك خلال الثورة[1].

«ممر وايا الجبلي»: أحد الشعاب[2] في جبال نانتاهالا، بمقاطعة مايكون، حيث يعبر الدرب من جدول لوريل[3] التابع لنهر نانتاهالا إلى جدول كارتوغاجا التابع لنهر تنيسي الصغير. يسميه الشيروكي «آتاهي تا»، «مكان الصياح». وكان الموضع المذكور مسرحاً لمواجهة حادة خلال الثورة. ويبدو اسم وايا مشتقاً من عبارة «وا يا» بلغة الشيروكي، والتي تعني «ذئب».

«ويبستر»: عاصمة مقاطعة جاكسون على نهر توكاسيجي. عرفها الشيروكي باسم «أونادانتي يي»، أي «حيث مارسوا السحر». الاسم يرتبط في العادة بشِعْب جبلي يقع على بعد ثلاثة أميال إلى الشرق من ويبستر، على الطريق الصاعد إلى جدول

(1) الثورة الأمريكية (م).
(2) مفردها شعْب وهو الممر الجبلي (م).
(3) الغار (م).

Twitter: @ketab_n

سكوتس. حسب ما تروي الحكاية فقد توقفت في المكان مجموعة محاربة من الشاوانو كانت آتية من ناحية نهر بيجون، وذلك كي «تحضر دواء سحرياً» ضد الشيروكي، غير أنهم، وهم هناك، فوجئوا بالأخيرين الذين جاؤوا من خلفهم وقتلوا منهم أشخاصاً عدة من بينهم الساحر.

«يا نو- دينيهون بي»: «حيث تحيا الدببة»، موضع عند نهر أوكونالوفتي، على بعد ميل واحد فوق نقطة التقائه بنهر توكاسيجي في مقاطعة سواين. وقد قيل إن عائلة من «دببة المياه» تعيش في قاع النهر، في موضع عميق بتلك النقطة.

«يا نو- دينيهون بي»: «حيث تغتسل الدببة»، هي بركة صغيرة من مياه باردة جداً وأرجوانية، لا منفذ لها فتكاد تجف الآن، هناك في الموضع الذي تقع فيه عند أحد شعاب جبال سموكي العظيمة، بالقرب من منبع رايفن[1] الرافد الغزير الذي يغذي نهر أوكونالوفتي في مقاطعة سواين. وقد قيل إنها مَراغَة[2] دببة مفضلة، كما أشارت بعض المرويات أن لمياهها المزايا عينها التي لـ «أتاغا هي».

(1) Raven غراب (م).
(2) المكان الذي تتمرغ فيه الدببة (م).

Twitter: @ketab_n

«ياوا إيْ»: «مكان ياوا»، هو موضع على الطرف الجنوبي لجدول يِلو[1] التابع لنهر تشيُوا في مقاطعة غراهام، على بُعد نحو ميل فوق الدرب الذي يعبر على مقربة من مصب الجدول المذكور. وتروي الأسطورة أن فرداً غامضاً، كائناً بشرياً على ما يظهر، كان قد رصد هضبة دائرية قريبة من المكان، وقد كان يُشاهد في بعض الأحيان وهو يسير حول القمة صائحاً: «ياوا! ياوا!»، فيما كانت أصوات طلقات نارية من بنادق غير مرئية تدوي آتية من التل، مما جعل الناس يخشون الاقتراب منها.

(1) Yellow أصفر(م).

Twitter: @ketab_n

أساطير محلية من ساوث كارولينا

إذ انسحب الشيروكي في مطلع عام 1777 من مجمل ولاية ساوث كارولينا ما عدا قطاع صغير في أقصى الغرب، فإن ذاكرة الأساطير القديمة الشائعة هناك، ضمن الولاية المذكورة، ذَوَت في أوساط القبيلة على نحو كامل. إلى ذلك فقد بقي بعض الأسماء المحلية التي أورثها البيض لأحفادهم حيث كونت تلك الأسماء مرويات قد يتفاوت الشك في أصالتها.

في مقاطعتي بيكنز وأندرسون، في الزاوية الشمالية الغربية للولاية، ثمة سلسلة من الجداول التي تلتحق بنهر كِيْيوْوي والتي سميت تباعاً بانتظام، من الأعلى إلى الأسفل: مِيلّ، ستةُ أميال، اثنا عشر ميلاً، ثمانية عشر ميلاً، ثلاثة وعشرون ميلاً، وستة وعشرون ميلاً. هكذا تم، حسب الحكاية المحلية، تنصير الأسماء المذكورة خلال إحدى حروب الهنود المبكرة، من قبل امرأة شابة وذلك حين كانت الأخيرة تعبر كل مخاضة من مخاضات الجداول في رحلة مسرعة على ظهر الخيل إلى القرى السفلى بغية

Twitter: @ketab_n

تأمين العون لحامية حصن الأمير جورج المحاصرة. عمرُ هذه الأسماء الفعلي يكادُ يرجع إلى فترة التأسيس الأولى للمستعمرة، وكانت غايتها الإشارة المباشرة إلى المسافات على طول الطريق التجاري من حصن ستة وتسعين، عند جدول هنليز[1] التابع لنهر سالودا، إلى كِيُوْوي، هذه الأخيرة التي كانت في ذلك الوقت بلدة التخوم لأمة الشيروكي، حيث حدّدت المسافة بين نقطتي بدايتها ونهايتها بـ 96 ميل مع تقدم الطريق. كان حصن الأمير جورج على الضفة الشرقية من نهر كِيُوْوي، قرب منبع جدول كرو[2]، مواجهاً البلدة الهندية على نحو مباشر.

«كونروس»: هو اسم الجدول الذي يلتحق من الغرب بنهر كِيُوْوي (أو سينيكا)، في مقاطعة أندرسون، وهو تحوير للاسم الذي يلفظه الشيروكي، في المناطق السفلى، بلهجتهم المحكية، «كاوان - أورا سون يي»، أو «كاوان - تسورا سون يي»، أي «حيث سقطت البطة». حسب حكاية من حكايات الشيروكي ما زالت متداولة، فقد أقامت البطة عشها مرة في أعلى جرف صخري يشرف على النهر، وذلك داخل كهف تقع فتحته في موضع يجعلها تشعر كلما همت بمغادرة العش وكأنها ستقع من

(1) Henleys

(2) Crow غراب (م).

Twitter: @ketab_n

أعلى الجرف إلى المياه. كان هناك على الأرجح قرية هندية تحمل هذا الاسم نفسه.

«توكساواي»: اسم جدول وقرية سابقة من قرى الشيروكي عند المنبع الأقصى لنهر كِيْيُوْوي، وقد تمت ترجمته على نحو خاطئ إلى «مكان ذرف الدموع»، المشتق من عبارة «داكساوا إيهو»، «إنه يذرف دمعاً». الصيغة الصحيحة لهذا الاسم بلغة الشيروكي هي «دوكسا إِيْ»، أو «دوكْوْ سا إيْ»، الكلمة التي لا يمكن تحليلها والتي يعد معناها الآن ضائعاً.

Twitter: @ketab_n

أساطير محلية من تنيسي

للاطلاع على أساطير أكثر أهمية شائعة في تنيسي، راجع قصص: «الصياد في الداكوا»، «عش التلا نُوا»، «دور البلدات المنقولة»، «دوامة المياه المرصودة»، «أونتسايي»، و«أُوْ تلونتا».

«صخرة درب الجاموس»: هذه الصخرة، التي يعد اسمها الهندي اليوم ضائعاً، كانت قد ذُكرت على نحو مشوش بأنها موجودة إلى الجنوب الغربي من ممر كومبرلاند الجبلي، عند الحدود الشمالية للولاية. حسب ما يذكر وافورد، فإن صيادي الشيروكي القدماء، قبل نحو ثمانين عاماً، كانوا يعرفون تلك الصخرة جيداً وقد وصفوا أنها كانت مليئة بالخدوش التي سببها عَدْو الجواميس عليها وقيام هذه الجواميس بنطح جدار الصخرة برؤوسها نطحات جنونية غاضبة، لتُبقي آثار رؤوسها وقرونها محفورة في الحجر.

Twitter: @ketab_n

«تشاتانوغا»: في عام 1848، تأسست هذه المدينة الواقعة عند نهر تنيسي، قريباً من بداية الجدول الذي يحمل الاسم ذاته في مقاطعة هاميلتون. كما هو معروف حتى الآن فإنه لم يكن هناك قرية للشيروكي في ذلك المكان، على الرغم من إقامة بعض رجال القبيلة البارزين في الجوار. ويرتبط الاسم في الأصل بأحد المواضع عند الجدول المذكور. ويلفظه الشيروكي «تساتانو غي»، لكنهم يقولون إنه ليس عبارة من عبارات لغتهم وإنه لا تفسير له بلغتهم هذه. ويشير رأي أفضل الرواة إلى أنه اسم بلغة التشيكاسو (تشكتو)، الأمر الذي يبدو ممكناً، إذ كانت بلاد التشيكاسو في السابق قد امتدت لمسافة طويلة على مدى نهر تنيسي، حيث قامت القرية الأقرب ضمن مسافة ثمانين ميل عن المدينة الحالية. في بعض الأحيان يطلق الشيروكي على المدينة اسم «آ تلا نُوْوا»، «وكر الـ تلا نُوْوا (الصقر)»، الاسم القديم الذي كانوا قد أطلقوه على جُرُفٍ صخري عال عند الطرف الجنوبي للنهر، في أسفل شارع ماركت الحالي. من هذا على الأرجح كون كاتب في مجلة روايته القائلة إن اسم «تشاتانوغا» يعني «عش الغراب».

Twitter: @ketab_n

«تشيكاماوغا»: اسم جَدْوَلَين في مقاطعة هاميلتون، ينضمان إلى نهر تنيسي من جهتين متعاكستين على بعد أميال فوق تشاتانوغا. ويطلق الاسم ذاته على أحد الينابيع التي تغذي نهر تشاتاهوتشي بمقاطعة وايت، في جورجيا. ويلفظه الشيروكي «تسيكاما غي»، حيث استخدموه في تنيسي ليسموا به منطقة قريبة من مصب مجرى الماء الجنوبي، أو الرئيس، حيث كانت لهم في السابق بلدة رُحلوا عنها في عام 1782. وهم إلى ذلك يقولون إن الاسم لا يمثل عبارة من عبارات لغتهم، وإنه لا معنى له في لغتهم تلك. في عام 1793، أفاد فيلسون[1]، وعلى نحو خاطئ، أن الاسم المذكور مشتق من لغة الشيروكي ومعناه «قِدْر تغلي»، وذلك في الإشارة إلى دوامة خطرة في النهر القريب، وقد صادق كتاب لاحقون على الأمر عبر ترجمتهم إياه كي يعني «دوامة». الخطأ مصدره الخلط بين هذا المكان وبين مكان آخر هو «الامتصاص»، الدوامة الخطرة في نهر تنيسي، الواقعة على بعد خمسة عشر ميلاً قُدماً في مجرى النهر، والتي يعرفها الشيروكي باسم «أونتيغوهي»، «قِدْر في المياه». نظراً للقتال العنيف الذي دار في تلك الناحية خلال الحرب الأهلية[2]، فقد

(1) جون فيلسون (1753–1788): كاتب ومستكشف أمريكي. وهو مؤرخ كنتاكي وأحد مؤسسي مدينة سينسيناتي في أوهايو (م).
(2) الحرب الأهلية الأمريكية (1861– 1865) (م).

Twitter: @ketab_n

أطلق على المجرى المائي المذكور أحياناً، وعلى نحو شاعري، اسم «نهر الموت»، المصطلح الذي طالما أطلق كترجمة للعبارة الهندية. وقد أوحى الاسم المذكور بأنه مشتق من عبارة في لغة الغونكوان تشير موضع لصيد السمك، أو لطعنه، الاحتمال الذي يرده إلى أصل في لغة الشاوانو الذين سكنوا وسط تنيسي، حيث سكن بعضهم في فترة لاحقة مع الشيروكي في القرى المنتشرة على طول طرف النهر هذا. وإن لم يكن مشتقاً من لغة الشاوانو، فيرجح اشتقاقه حينذاك من لغة الكريك، أو الشيكاسو.

في ما خص «عَقيق[1] تشيكاماوغا»، الخانق[2] الواقع عند مجرى مائي شمالي يحمل هذا الاسم، فإن كاتباً في صحيفة يذكر الأسطورة التالية، التي تحمل الاسم إياه أيضاً، والتي يكاد يكون غير ضروري القول إنها زائفة:

الشيروكي كانوا قبيلة تفردت في غناها بالمرويات، وبالطبع كانوا متميزين بالضراوة والتشاؤم والفرادة، فلم يخل مكان من أساطيرهم. سلالة شبه البرابرة تعتقد حتى هذا اليوم، أنه وفي الأزمنة السالفة، بنى أفعوان عظيم وكره في ذلك العقيق، وأنه في كل عام كان يطلب من البشر الحمر عشرة من أجمل عذراواتهم

(1) العَقيق: وادٍ عميق ضيق (م).
(2) الخانق: وادٍ ضيق يجري عبره جدول (م).

Twitter: @ketab_n

تقدمن له كأضحية. خوفاً من الفناء، فقد داومت القبيلة على الاستجابة لطلبه ذاك، وسط عويل النساء ونواحهن. وكان الأفعوان، قبل يوم واحد من تقديم الأضحية له، يعلن عن وجوده من خلال هسهسة شيطانية يطلقها، فيجري في الصباح التالي أخذ الجميلات اللواتي اخترن لنجاة القبيلة، إلى قمة جرف عال ويتركن هناك كي يبتلعهن المولوخ[1] المحرشف.

«تشيلهُوْوِي»: جبل ومحطة في الجهة الشمالية من نهر تنيسي الصغير، في مقاطعة بلاونت[2]. صيغة الاسم الصحيحة في لغة الشيروكي هي «تسو لونوي إيْ»، وهو يطلق على الجزء السفلي من جدول أبرامز، الذي ينضم إلى النهر من الشمال، مباشرة في جزئه العلوي. معنى العبارة مفقود، على الرغم من احتمال صلتها بـ «تسو لو»، «الرفراف»[3]. وقد ترجمت على نحو خاطئ إلى «غزال النار»، التأويل الذي قام على الاعتقاد غير صحيح مفاده أن الاسم المذكور مكون من كلمتين، «أتسي لا»، «نار»، و «آوي»، «غزال»، التي منها «تْشِيل- هُوْوِي». كما يرد اسم «تشيلهُوْوِي» أيضاً كاسم لمجرى مائي في جبال جنوب غرب فيرجينيا.

(1) شيء يتطلب تضحية رهيبة، وهو مشتق تيمناً بإله سامي كان الأطفال يُحرقون على مذبحه (م).

(2) Blount

(3) Kingfisher طائر يعيش قرب الأنهار ويقتات بالأسماك (م).

Twitter: @ketab_n

«لينوار[1]»: على الضفة الشمالية من نهر تنيسي الرئيس، عند التقائه نهر تنيسي الصغير في مقاطعة لودون[2]. هذا الاسم بلغة الشيروكي هو «وا غينسي»، الذي يعد معناه ضائعاً، وقد أطلق في الأساس على دوامة في مجرى النهر، حيث كان يقال إن أفعواناً كبيراً أقام بها لاعتبارها نذير شر. في إحدى المرات كان رجل يعبر النهر في ذلك الموضع رأى الأفعوان في المياه وبعد ذلك بوقت قصير فقد واحداً من أبنائه.

«مورغانتون»: على تل صخري إلى جانب الطريق الهندي القديم إلى الجانب الغربي من نهر تنيسي الصغير، فوق مورغانتون، بمقاطعة لودون، وفي مواجهتها تقريباً، هناك، أو كان هناك منذ بضع سنوات خلت، أربع أشجار تتوهج على نحو غريب، وهي ترتبط، بحسب ما يروي الهنود في عدة قصص غير مقنعة، برأي سائد يقول إنها علامات بالغة القدم أقامها الهنود لتحديد مواقع مناجم خبيئة.

«ناشفيل»: عاصمة الولاية في مقاطعة ديفيدسون. اسمها بلغة الشيروكي هو «داغو ناويلا هي»، «مكان كبد بلح البحر»، وهي تبدو مرتبطة بأسطورة منسية إلى حد ما.

(1) Lenoir
(2) Loudon

Twitter: @ketab_n

«نيكادجاك»: جدول ينضم إلى نهر تنيسي من الجنوب عند مسافة خمسة عشر ميلاً في أسفل تشاتانوغا. على مقربة من مصبه ثمة كهف شهير يحمل الاسم عينه. اسمه بلغة الشيروكي هو «نيكوتسي غي»، وهو اسم قرية سابقة لتلك القبيلة قامت عند مصب الجدول المذكور، لكن العبارة المذكورة لا تفسير لها في هذه اللغة، وهي على الأرجح مشتقة من لغة أخرى، قد تكون أصولها من التشيكاسو. الاشتقاق من اسم شخص محدد هو «جاك الزنجي[1]»، الذي قيل إنه اتخذ من الكهف المذكور مقراً رئيساً له، يعد وهماً خالصاً.

«سافانا»: مزرعة على الضفة الشمالية لنهر هيواسي عند مخاضة تحمل الاسم عينه، على بعد نحو خمسة أميال فوق جدول كوناساوغا وكولومبوس، في مقاطعة بولك[2]. هنا في المكان، تنتشر بقايا قرية قديمة، من بينها أكوام ومقبرة، كما كان ثمة في المكان، منذ نحو سبعين عاماً خلت، حظيرة صغيرة، مربعة الشكل ومسيجة، أو أنها «حصن» حجر متعر. وحسب حكاية رُويت لوافورد، فقد أعد الشيروكي في المكان مرة كميناً لمجموعة محاربة عدوة كانوا يتوقعون قدومها بمحاذاة النهر، غير

(1) «Nigger Jack»
(2) Polk

Twitter: @ketab_n

أن الهزيمة حلت بالشيروكي أنفسهم على يد الأعداء الذين التفوا حول جبل بلاك فبلغوا مؤخرة الشيروكي.

«تنيسي»: هذا الاسم بلغة الشيروكي هو «تاناسي»، وقد أطلق على مواضع عديدة في أراضي القبيلة القديمة. كانت البلدة الأهم التي تحمل هذا الاسم قائمة على الضفة الجنوبية لنهر تنيسي الصغير، في وسط المسافة الفاصلة بين جَدولي سيتيكو وتوكو بمقاطعة مونرو في تنيسي.

بلدة أخرى تحمل هذا الاسم كانت قائمة عند الطرف الجنوبي لهيواسي، مباشرة في أعلى نقطة الالتقاء مع أوكوْوِي في مقاطعة بولك، في تنيسي.

منطقة ثالثة حملت هذا الاسم، قامت بمحاذاة جدول تنيسي، المنبع الشرقي الأقصى لنهر توكاسيجي في مقاطعة جاكسون في نورث كارولينا.

معنى الاسم ضائعٌ. فهو لم يكن الاسم الهندي للنهر، ولا يعني «الملعقة الكبيرة»، كما اعتُقد على نحو خاطئ.

Twitter: @ketab_n

أساطير محلية من جورجيا

للاطلاع على أساطير أكثر أهمية تتعلق بجورجيا، راجع الحكايات التالية: «ياهولا»، «النون هي»، «الأوستو تلي»، «سعي آغان- أوني تسي خلف الأوكتينا»، و«الرجل الذي تزوج من شقيقة البرق» (هذه الحكايات موجودة في الجزأين الأول والثاني من حكايات الشيروكي). ويعدّ كتاب وايت[1]، «المجموعات التاريخية لجورجيا»، مسؤولاً عن عدد من الأساطير الزائفة.

«شجرة البلوط المقطوعة»: شجرة شهيرة، تضم المئات من آثار الفؤوس التي ضربت فيها، كانت قائمة فيما مضى في مقاطعة هابيرشام، على بُعد ستة أميال إلى الشرق من كلاركسفيل في قمة سلسلة تشاتاهوتشي الجبلية، وعلى الجانب الشمالي للطريق من كلاركسفيل إلى جدول توكُوْوا. اسمها بلغة الشيروكي هو «ديغالو ياتون يي»، «حيث جُرحت بالفؤوس». لقد كانت

(1) جورج وايت (1802–1887): هو مبشر ومؤرخ هاو، وضع مؤلفه «المجموعات التاريخية لجورجيا» في عام 1854 (م).

Twitter: @ketab_n

موضع اجتماع مفضل للهنود، كما للمستوطنين الأوائل الذين قالوا إن الجروح تلك كانت علامات ملثومة وضع الهنود من خلالها سجلاً بفروات الرؤوس التي انتزعوها في غزواتهم. وايت روى القصة («المجموعات التاريخية لجورجيا»، ص. 489، 1855) على هذا النحو مستنداً إلى بعض المراجع التي سبقته:

شجرة البلوط المقطوعة هي واحدة من الأشياء المثيرة في هذه البلاد، إذ أنها شجرة شهيرة في التاريخ الهندي كما في حكايا المستوطنين الأوائل. قامت الشجرة المذكورة على بعد زهاء ستة أميال جنوب شرق كلاركسفيل، واشتهرت في كونها «موقع القانون»، أو المكان الذي تُعقد فيه لقاءات الجماعات والمحاكم القضائية. حسب ما تروي الحكايات فإن الشجرة المقطوعة هذه مثلت مكان لقاء ذائع الصيت بالنسبة للهنود خلال غزوات السلب التي جردوها، حيث انتصبت في موضع التقت فيه طرق عدة. هنا، في هذا المكان، وضعت خططهم الحربية، وانطلاقاً من هنا، من هذا المكان، كانت المجموعات المحاربة تفترق كل واحدة منها في اتجاه، ثم، حين تعود، كانت تنتظر بعضها بعض عند الشجرة، ومن ثم كان أفراد المجموعات يسجلون عليها،

Twitter: @ketab_n

بلغتهم الموجزة، نتائج مغامراتهم، وكانوا مقابل كل فروة رأس يسلخونها ينزلون جرحاً بالشجرة. إن صدقت هذه المرويات، ومثّل كل أثر جرح في البلوطة المشققة فروة رأس، فمن المفترض أن تكون مجموعاتهم المستكشفة قد حققت نجاحات عظيمة. الشجرة هذه كانت ما زالت حية لسنوات قليلة بعد أن قام شاب، يحمل أهواء أبناء جلدته كلها، ويشغله الانتقام الشخصي أكثر مما تشغله تقاليد الهنود، قام بقتل الشجرة عبر تحليقها[1] لتكف عن أن تكون نصباً حياً يشهد على قسوة المتوحشين. الجَدَعة المتبقية منها ما زالت قائمة.

«شِعْب[2] الرجل الميت»: يقع على بعد ميل واحد تحت شلالات تالولا، على الجانب الغربي من خط سكة الحديد في مقاطعة هابيرشام. دُعي هكذا تيمناً بقبر هندي سابق ذائع الصيت، تكاد معالمه الآن تختفي. حسب ما تروي القصة فقد كان ذلك قبر هندي قتل هنا فيما كان فاراً[3] مع امرأة بيضاء سباها من زوجها.

(1) يُحلق الشجرة: يُحدث حلقة حول جذع الشجرة لإماتتها بقطع الغذاء عنها (م).
(2) ممر جبلي (م).
(3) امرأة بيضاء عشيقة للرجل الهندي فرت معه من بيت زوجها (م).

Twitter: @ketab_n

«بلدة الضفدع»: جدول ماء عند منبع نهر تشيستاتي[1]، إلى الشمال من داهلونيغا[2]، في مقاطعة لومبكين. الاسم في لغة الشيروكي هو «والاسي يي»، «مكان الضفدع». إنه اسم أطلق في الأصل على جبل يقع إلى شمال شرق (جبل روك)، وذلك من قصة رَوَت أن صياداً شاهد مرة هناك ضفدعاً كبيراً بحجم بيت. القرية الهندية المحاذية للجدول تحمل الاسم ذاته.

«هيواسي»: نهر تتركز منابعه في مقاطعة تاونز في شمال جورجيا، ويجري في اتجاه الشمال الغربي للانضمام إلى نهر تنيسي. اسمه الصحيح بلغة الشيروكي، الاسم الذي أطلق على قريتين سابقتين عند مجرى النهر، هو «أيوهوا سي» (الذي يعني «بطحاء[3]»). على الرغم من عدم وجود قصة محددة عند الشيروكي مرتبطة بالاسم، فإن وايت[4] («المجموعات التاريخية لجورجيا»، ص. 660) يجعل من الاسم المذكور موضوعاً لأسطورة زائفة طويلة، حيث اعتبر هيواسي فيها، الذي ترجم إلى «الخِشْف[5] الجميل»، الابنة الجميلة لزعيم كاتاوبا، التي خطب ودها وحظي بها في النهاية محارب شاب من الشيروكي يدعى

(1) Chestatee
(2) Dahlonega
(3) سهل لا شجر فيه (م).
(4) جورج وايت (م).
(5) ولد الظبي (م).

Twitter: @ketab_n

نوتلي، «الفارس المقدام»، الذي صار فيما بعد الزعيم الأعلى للشيروكي ونجح في إقامة سلام أبدي بين القبيلتين. القصة تبدو جميلة جداً، لكنها محض خيال.

«ناكوتشي»: قرية تقوم في مكان بلدة سابقة من بلدات الشيروكي، في وادٍ جميل وخصب يحمل الاسم ذاته عند منبع نهر تشاتاهوتشي بمقاطعة وايت. الاسم بلغة الشيروكي هو «ناغو تسي»، من دون أن يكون ثمة معنى له باللغة المذكورة، كما يبدو مشتقاً من لغة أجنبية، هي الكريك ربما. على بعد زهاء ميلين في أعلى القرية، وعلى ضفة النهر الشرقية، ثمة كومة كبيرة. يأتي وايت («المجموعات التاريخية لجورجيا»، ص. 486) على ذكر أسطورة متخيلة، حيث أن ناكوتشي بحسبها هي «نجمة المساء»، الأميرة الهندية الجميلة التي، لسوء الحظ، وقعت في حب زعيم قبيلة معادية، وقد قتلت الأميرة مع حبيبها، في أثناء فرارهما من انتقام والد غاضب. دفن الاثنان في قبر واحد وقد أقيمت رابية فوق الموقع. الحقيقة الوحيدة في القصة هي أن الاسم يوحي قليلاً بـ «ناكويسي»، العبارة التي تعني «نجمة» في لغة الشيروكي.

«نوتلي»: نهر ينبع في مقاطعة يونيون ويجري باتجاه الشمال الغربي في هيواسي. الاسم بلغة الشيروكي هو «نا دو لي»،

Twitter: @ketab_n

وقد أطلق على قرية سابقة قامت على الطرف الغربي للنهر في مقاطعة الشيروكي، بنورث كارولينا، وذلك على بعد نحو ميل من حدود جورجيا. على الرغم من إيحاء هذا الاسم بعبارة «نا تو لي»، «خشب الطِيْب»، فإنه يمثل عبارة مختلفة، لا معنى لها في لغة الشيروكي، حيث يظهر إنها مشتقة من لغة أجنبية، قد تكون لغة الكريك. للاطلاع على أسطورة زائفة ترتبط بالاسم، راجع المقطع السابق الذي يدور حول «هيواسي».

«الصخرة الناطقة»: جدول مياه في أعلى جورجيا يجرى شمالاً لينضم إلى نهر «كوساواتي». اعتُبرت القرى الهندية بمحاذاته تابعة لساندرستاون، الواقعة عند الجزء السفلي من النهر، حيث قامت دار البلدة على بُعد ميل فوق المكان الذي تقوم فيه محطة «الصخرة الناطقة» عند الطرف الغربي من خط السكة الحديدية. الاسم هو ترجمة لعبارة «نونيو –غونواني سكي» في لغة الشيروكي، التي تعني «الصخرة التي تنطق»، وهو يشير، حسب ما يروي أحد العارفين، إلى صخرة تُرجع الصدى موجودة في موضع ما بمحاذاة مجرى المياه في أسفل خط السكة الحديدية الحالي. تاجر قديم من الشيروكي في جورجيا يقول إن الاسم المذكور أطلق على صخرة كان الهنود فيما مضى يعقدون

Twitter: @ketab_n

مجالسهم عليها، لكن أتيمولوجية[1] العبارة تنفي هذا الاشتقاق.

«تالولا»: نهر في مقاطعة رابون[2]، شمال شرق جورجيا، يجري في توغالو، ويتخلله شلال جميل على بُعد زهاء ميلين فوق مصبه. الاسم بلغة الشيروكي هو «تالولو» (يلفظ «تاروري» في لهجة شيروكي المناطق السفلى)، وهو اسم لقرية قديمة تفصلها مسافة قليلة عن الشلالات تحتها، كما أطلق على جدول ومنطقة واقعين عند مصب نهر تشيْيوا في مقاطعة غراهام في نورث كارولينا. ترجمة الاسم متعذرة. وقد ترجمه كاتب في مجلة إلى «المروع»، وذلك من دون إسناد. ويترجمه سكولكرافت، مستنداً إلى كلام سيدة من الشيروكي، إلى «هناك يقبع طفلك»، تأثراً بقصة طفل حمله الشلال. لكن وبرغم ذلك فإن الاسم لم يُطلق على الشلال، بل على منطقة تحاذي مجرى المياه في الأعلى، كما على منطقة أخرى في نورث كارولينا. الخطأ في الأمر ناشئ من حقيقة وجود عبارة مشابهة بلفظها إلى حد ما تعني «إنجاب الأطفال»، أو «الحمل»، كانت تستخدم في الكلام عن امرأة. ويردّها أحد الرواة يردها إلى «تالولو»، نقيق نوع من

(1) الأتيمولوجيا: علم التأثيل أو الترسيس، وهو يشمل بسط وتعليل أصل لفظة ما وتاريخها (م).

(2) Rabun

Twitter: @ketab_n

أنواع الضفادع يعرف باسم «دولوسي» كان موجوداً هناك في الجوار، لكن ليس في داخل المحمية، وكان طعاماً يؤكل فيما مضى. وثمة اشتقاق محتمل من عبارة «أ تالولو»، «غير المُنجز، المُبكر، وغير الناجح». الشلال عرف باسم «أوغون بي»، الاسم الذي يعد معناه ضائعاً، والذي أطلق أيضاً على منطقة مجاورة لنهر تنيسي الصغير قرب فرانكلين في نورث كارولينا.

في هذا الإطار يُورد لانمان[1] القصة التالية، التي، وبرغم التزيين الذي ألحقه بها الرجل الأبيض، تبدو مستندة إلى قصة أصيلة من قصص الشيروكي حول الـ «نوني هي»:

في أثناء إقامتي بالقرب من شلالات تالولا لم أدخر جهداً بغية الحصول على أسطورة هندية أو أسطورتين من تلك المرتبطة بهم، وقد حالفني الحظ في سماع واحدة منها لم تكن قد نشرت بعد. وكان رجل أبيض اكتشف الشلالات لأول مرة، قد حصل على تلك الأسطورة من الشيروكي الذين عاشوا هناك في حينها. وهي كالتالي: منذ أجيال عديدة سبقت، حصل أن صيادين مشهورين كثراً وهم يسعون خلف الطرائد، من الغرب إلى ما يعرف الآن بنهر سافانا، كانوا قد ضلوا طريقهم ولم يعودوا قطّ إلى معسكراتهم.

(1) تشارلز لانمان، «رسائل من جبال الأليغاني (1849) (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

مع مرور الزمن أثار الأمر فضول الأمة ومخاوفها فبُذلت المساعي للتحقق من أسباب الاختفاء الغريب لهؤلاء الصيادين، حيث انطلقت نحو النهر العظيم مجموعة من العرافين لأداء الحج. غاب العرافون هناك على مدى قمر كامل[1]، وحين عادوا إلى أصدقائهم قالوا إنهم اكتشفوا، في ناحية غير معروفة من البلاد، صدعاً رهيباً ينهمر من خلاله سيل الجبل صاخباً فيصم السمع. كان المكان وحشياً إلى أقصى حد، حسب ما قالوا، وكان سكانه جنساً من الرجال والنساء الصغار الذين أقاموا في شقوق الصخور وفي مغاور تحت مساقط المياه. حاولوا بكل حيلة يتقنونها عقد مجلس مع القوم الصغار، إلا أن ذلك كله لم يجد نفعاً، ومن الصرخات التي كانوا يطلقونها من حين إلى آخر، أدرك العرافون أن هؤلاء كانوا أعداءً للعرق الهندي، فاستنتجت الأمة كلها على ضوء ذلك، أن الصيادين الكثر الذين ضاعوا كانوا قد سيقوا سوقاً إلى موتهم في الصدع الرهيب الذي سموه تالولا. بسبب هذه الأسطورة الصغيرة، يجدر القول إن أمة الشيروكي، وقبل انطلاقها إلى الغرب القصي، تجنبت شلالات تالولا باستمرار، وقد ندر الوقوع عليهم مصطادين في ذلك الجوار[2].

(1) على مدى شهر قمري (م).

(2) «رسائل من جبال أليغاني»، ص ص. 42-41 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

«توكوْوا»: (1) جدول يجري إلى نهر توغالو في مقاطعة هابيرشام، وفي مجراه الأعلى ثمة شلال قرب قرية تحمل الاسم ذاته. (2) نهر في أعلى جورجيا، يجري نحو الشمال الغربي في هيواسي. الاسم الصحيح في لغة الشيروكي، الذي أطلق على قرية سابقة عند المجرين المائيين، هو «تاغوا هي»، «مكان كاتاوبا»، مما يشير إلى وجود سابق هناك لهنود هذه القبيلة. في عام 1783 باع الشيروكي الأراضي الواقعة قرب شلالات توكوْوا وقد آلت ملكيتها في إحدى المرات إلى جد وافورد[1]. حسب ما يذكر وافورد، فقد كانت هناك رواية تقول إن البيض حين زاروا المكان لأول مرة رأوا واعتقدوا أن ثمة امرأة هندية تمشي تحت سطح الماء في أسفل الشلالات، وحين نظروا مرة أخرى بعد لحظات رأوها تجلس على صخرة معلقة في الهواء على ارتفاع مئتي قدم، وقدماها تتدليان من الأعلى. وقال وافورد: «إنها بالتأكيد واحدة من الـ نوني هي».

«شِعْب صخرة الآثار»: شِعْب جبلي يقع على بُعد زهاء خمسة أميال إلى الشرق من بليرسفيل[2] في مقاطعة يونيون، على السلسلة الجبلية التي تفصل جدول براستاون[3] عن مياه

(1) James Wafford جايمس وافورد
(2) Blairsville
(3) Brasstown

Twitter: @ketab_n

نهر نوتلي. الحجر الصابوني المَيْكي[1]، الذي يكون الصخور على جانبي الدرب، تملؤه النقوش التي استمد منها الشِعْب اسمه. يطلق الشيروكي على المكان اسم «داتسو نالاسغون يي»، «حيث هناك آثار»، أو «ديغايلون ها»، «المكان المطبوع، أي الموسوم». أشكال النقوش كثيرة ومتنوعة، بعضها يشبه آثار أقدام بشرية أو حيوانية، فيما يتألف بعضها الآخر من مربعات وتقاطعات ودوائر و«آثار أقدام طيور»، إلخ، موزعة من دون نظام ظاهر. وبالاستناد إلى ما كتبه الدكتور ستيفنسن في عام 1834، يقدم وايت («المجموعات التاريخية لجورجيا»، ص. 658، 1855)، ومن بعده جونز[2] («عادات الهنود الجنوبيين»، 1873)، وصفاً مضللاً وشديد المبالغة لهذه النقوش، وذلك من دون أن يتجشما شخصياً عناء بحث خاص بجريانه، برغم سهولة الوصول إلى الموقع. لم يُبذل أي جهد، محلياً كان أم من قبل سلطات الولاية، لحماية النقوش من التلف، وقد انتزع الكثير من بين الأجمل منها عن الصخرة وأخذها المخربون معهم، حيث كان ستيفنسن نفسه واحداً من هؤلاء حسب اعترافه هو.

وللشيروكي نظريات مختلفة حول أصل هذه النقوش، فيما

(1) من المَيْكة، وهي مادة شبه زجاجية يمكن أن تشطر إلى رقاقات تستعمل عازلاً للكهرباء
(2) تشارلز جونز، «عاديات الهنود الجنوبيين»، 1873 (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

يشير الهنود الأكثر حكمة إلى أنها صنيعة الصيادين الذين كانوا ينقشونها لتسلية أنفسهم خلال استراحتهم هناك عند ذلك الشِعْب الجبلي. قصة أخرى تشير إلى أنها صُنعت عندما كان سطح الأرض، المخلوقة حديثاً، ما زال رخواً، وذلك من قبل جيش جرار من الطيور والحيوانات كانت تفر عبر الشِعْب هرباً من خطر داهم تعقبها من الغرب – يقول بعضهم «حملة صيد» جردها الهنود. ويخلط هايوود من جهته بين هذه النقوش ونقوش أخرى في كارولينا الشمالية ترتبط بقصة المارد «تسول كالو».

الوصف المنمق التالي الذي يتناول النقوش والقصة الهندية المزعومة حول أصولها، مستل من وايت، بالاستناد إلى نص ستيفنسن:

عددها الظاهر أو المحدد هو 136، ويبدو بعضها طبيعياً بالخالص وكاملاً، فيما يبدو بعضها الآخر محاكاة فظة، وقد بدا أكثرها ممحواً إلى حد ما بفعل تأثير الزمن. إنها تتضمن أقداماً بشرية من تلك التي يبلغ طولها 4 إنشات إلى تلك العائدة لمحاربين عظام والتي يبلغ مقاسها 17 إنشاً ونصف للطول و7 إنشات وثلاثة أرباع الإنش للعرض على مدى أصابع القدم.

Twitter: @ketab_n

ما يبدو غريباً قليلاً، هو أن الأقدام البشرية تبدو كلها طبيعية ما عدا تلك التي تملك 6 أصابع، مما يثبت أن صاحبها كان سليل الـ «تيتان»[1]. ثمة 26 قدماً من هذه النقوش، وقد كانت حافية كلها ما عدا واحدة تبدو وكأنها تنتعل حذائي مُقسِين[2]. يدٌ جميلة مقلوبة، أو أنها مرهفة، احتلت موضعاً بالقرب من المحارب العظيم، وهي ربما كانت تعبيراً عن يد زوجته، التي رافقته من دون شك في جميع تنقلاته، مشاركة إياه في كدحه ومفرجة عن كربه. الكثير من آثار دعسات الخيل يظهر. إحداها تبدو منتعلة[3]، ويبدو بعضها صغيراً جداً، ويبلغ قياس إحداها 12 إنشاً ونصف بـ تسعة إنشات ونصف. يقول الشيروكي إن أثر الدعسة هذه يعود إلى حصان حرب عظيم كان يمتطيه زعيمهم. آثار كثيرة لديوك رومية كبيرة، وسلاحف وحمسات الماء[4]، ومخالب دب ضخم، وأثر دبيب أفعوان، وآثار دعسات غزالين، تظهر بين النقوش. المروية تحابي تنويعات النقوش هذه. وتجزم إحدى القصص أن العالم كان فيما مضى مغموراً بالمياه، وأن البشر والكائنات الحية كلها هلكوا جميعاً ما عدا عائلة واحدة، وتنويعة من الحيوانات الضرورية لملء الأرض ثانية، إذ جاءت

(1) Titan
(2) Moccasin
(3) لابسة للنعل (م).
(4) الرق (م).

Twitter: @ketab_n

الروح العظمى قبل الطوفان وأمرتهم بالصعود إلى كنو (مركب) كبير، قاده سبيله بعد إبحار طويل إلى هذا الموضع قرب مجموعة من المستنقعات فرسا هناك. وفي المكان نزلت مجموعة الحيوانات من الكنو، تاركة خلفها النقوش على الصخرة التي عبر عليها، والتي كانت قد لانت بفعل انغمارها الطويل في المياه، فأحسنت تلك الصخرة تلقي النقوش وحفظتها.

«جدول امرأة الحرب»: يدخل نهر تشاتوغا في مقاطعة رابون، شمال شرق جورجيا، في قلب بلاد الشيروكي السفلى القديمة. يبدو الاسم هندي الأصل، برغم ضياع الاسم الهندي وتهالك الحكاية. ويحاول كاتب يستشهد به وايت («المجموعات التاريخية لجورجيا»، ص. 444) تبيان أصوله من المأثرة التي قامت بها امرأة طويلة قوية مسترجلة خلال الثورة، بأسرها مجموعة من التوريين[1]، على أن الاسم يظهر في كتابات أدير[2] (ملاحظة، ص. 185) المبكرة في عام 1775. وهناك سبب ما يدعم الاعتقاد بأنها تشير إلى وجاهة أنثوية سابقة في أوساط الشيروكي، وقد ذكرها هايوود تحت عنوان «المرأة الجميلة» التي

(1) نسبة إلى حزب التوري، وهو حزب سياسي بريطاني مؤيد للسلطة الملكية ومقاوم للتغيير والإصلاح. وما يقصد هنا هو مجموعة من الأمريكيين المؤيدين لإنجلترا خلال الثورة الأمريكية ضد التاج البريطاني (م).

(2) Adair

Twitter: @ketab_n

كانت لها سلطة تقرير مصير أسرى الحرب. عرف وافورد مرة امرأة مسنة كان اسمها «دا نا- غا ستا»، عبارة مختصرة لاسم «دا ناوا- غاستا يا»، «الحرب القاطعة»، والتي فهمت على أنها تعني «المحاربة القاطعة (أي الضارية)». وتذكر حالات عديدة لنساء قمن بدور المحاربات في أوساط الشيروكي.

Twitter: @ketab_n

معرفة النبات

كان الشيروكي على الدوام شعباً مزارعاً، وبلادهم القديمة هي منطقة نباتات خصبة، بأشجار وارفة وأخرى صغيرة متشابكة على المنحدرات والسلاسل الجبلية، ووفرة هائلة من الزهر الملون المشرق والفاكهة البرية الحلوة بمحاذاة المجاري المائية. لهذا السبب فإن مملكة الخضار تحظى عندهم بموقع أكثر أهمية في الأسطورة وفي احتفالية القبيلة مما تحظى به عند الهنود الذين يقطنون السهول العارية من الأشجار وصحارى الغرب المجدبة الناعمة، فتمحورت معظم المعتقدات والعادات المرتبطة بهذا الأمر حول ممارسة السحر كما شرحها الكهنة والأطباء في كل قرية. ويرى الاعتقاد الذي ساد عموماً أن عالم النبات هو صديق الجنس البشري، وهو على الدوام مستعد لخدمة الأطباء بغية إبطال عدائية الحيوانات الحسودة. وتضمّ الوصفات المقدسة الكثير من التعليمات الغريبة لجمع الجذور الطبية ولحاء الشجر وإعدادها، بعد أن يتم اختيارها بالدرجة الأولى بالاستناد إلى نظرية التوافق.

Twitter: @ketab_n

الهنود شديدو الملاحظة، وقد بدا بعض أسماء نباتاتهم ملائماً على نحو مميز. هكذا فإن الهَدال[1]، الذي لا ينمو بمفرده قطّ، بل يوجد على الدوام وجذوره ملتصقة بلحاء شجرة مساندة أو شجيرة يستمد منها غذاءه، يُطلق عليه اسم يشير إلى أنه «متزوج من أربع» (أودا لي). ولا يزال البنفسج يحمل اسماً بصيغة الجمع، «دينذا سكواتي سكي»، «سحبوا رؤوس بعضهم بعض»، مُظهراً أن أطفال الشيروكي كانوا قد اكتشفوا لعبة ليست معروفة في أوساط أطفالنا. وتُدعى «عشبة الدب» (Eryngium)، بأوراقها الطويلة النحيلة كمثل ورق الذرة البالغ الصغر، «ساليكوا يي»، «الأفعوان الأخضر»، وتعرف ورقة العشب الأكبر باسم «دموع العمل»، نظراً للمعانها، ولحبوبها المستديرة التي يستعملها أطفال الهنود كقلادات، وهي تسمى «سيل– أوتسي»، «الذرة الأم». التي يسميها أطفالنا «سوزان ذات العيون السود» (Rudbeckia) هي «عين الغزال» (أ وي – أكتا) بالنسبة للشيروكي، وما نسميه نحن «خُف السيدة» (Cypripedium) هو بالنسبة لهم «مُقْسِين الحجل» (غُوْغْوِي – أولاسو لا). وتُسمّى «تفاحة مايو» (Podophyllum)، برأسها الذي يشبه المظلة، «أُوْ

(1) أو الدبق، وهو نبات طفيلي (م).

Twitter: @ketab_n

نيسكويتو غي»، ما يعني «ترتدي قبعة»، فيما يطلق على الفطر الأبيض المنتفخ اسم «ناكويسي - أوسدي»، «النجم الصغير»، وتحمل أُشنة الصخور المعروفة اسماً موسيقياً، على الرغم من لا شاعريته، هو «أوتسالي تا»، «كشط القِدْر».

ويحمل بعض النباتات أسماء مستمدة من موقعه الواقعي أو المفترض في اقتصاد الحيوان، كمثل «الوردة البرية»، «تسيست - أوني غيستي»، «تأكلها الأرانب» - في إشارة إلى التوت البزري - والسرْخَس الدرعي (Aspidum)، «يان- أوتسي ستو»، «يستلقي الدب عليها». نباتات أخرى أيضاً تُسمى انطلاقاً من أدوارها المحلية والاحتفالية، كمثل «شيخ الربيع»[1] (Erigeron canadense) الذي يطلق عليه اسم «أتسيل - سون تي»، «صانع النار»، لأن سيقانه اليابسة كانت تستخدم منذ القدم لإشعال النار عن طريق الحك، وعشبة البَوْجَل (Lycopus virginicus)، المعروفة باسم «أنِيْواني سكي»، «المتحدثون»، لأن جذورها الممضوغة، التي تُعطى للأطفال كي يبلعوها، أو كي يفركوها على شفاههم، كانت تهب الأطفال هؤلاء، كما يفترض، ملكة الفصاحة. وكان بعض النباتات الأخرى، وبالإضافة إلى استخداماته الشائعة في أوساط الناس

(1) نبات من الفصيلة المركبة (م).

Twitter: @ketab_n

العاديين، يحمل اسماً مقدّساً أو رمزياً، ولا يُستخدم إلا من قبل الكهنة والأطباء في وصفات الصلاة. بهذا فإن الجنسينغ، أو «سانغ»، كما يطلق عليه سكان الجبال البيض في معظم الأحيان، يُعرف بالنسبة للعموم باسم «آ تالي- غولي»، «متسلق الجبل»، لكن في الوصفات فقد كان يشار إليه باسم «يُونْوِي أوسدي»، «الرجل الصغير»، فيما عرف «سيلو» (الذرة) باسم «أغاوا لا»، «المرأة العجوز».

تمكن أصول اسم أو اسمين من أسماء النبات في الأساطير، كما هو الحال على سبيل المثال بالنسبة لـ (Prosartes lanuginose)، الذي يحمل اسم «والاس - أونول ستي» الغريب والذي يعني «تقاتل به الضفادع»، والمستمد من قصة تروي أنه وفي قديم الزمان في - هيلاهي يو— تواجه ضفدعان مشاكسان مرة في معركة استخدما خلالها سيقان ذلك النبات كرمحين. في صيغة المكان أشار الاسم المذكور إلى قرية سابقة من قرى الشيروكي في جورجيا، كان البيض قد أطلقوا عليها اسم «القرية المقاتلة» في سوء فهم من قبلهم لمعنى العبارة. بالنسبة للبرسيم الأبيض، يقول الشيروكي إنه «يتبع الرجل الأبيض».

Twitter: @ketab_n

تصنيف الأشجار بين تلك التي تبقى خضراء دائماً وبين الطارحة لأوراقها في كل عام، يتم بالاستناد إلى أسطورة، رُويت في مكان آخر، يُعدّ بحسبها فقدان أوراق الأشجار خلال فصل الشتاء عقاباً لها لفشلها في الثبات أمام المصاعب حتى النهاية. مع الشيروكي، كما مع جميع القبائل تقريباً في الشرق والغرب، فإن شجرة السدر تبقى مقدسة سامية فوق الأشجار الأخرى. وتكمن أسباب هذا التبجيل ببساطة في اخضرارها الدائم، وفي شذاها البلسمي، وفي اللون الجميل لخشبها المعرق الحسن الذي لا يفسد ولا يُبلى عملياً. وتُلقى الأغصان الخضراء الصغيرة في النار كبخور في احتفالات معينة، وعلى نحو خاص كي تُبطل تأثير الأحلام الأسغينية[1]، إذ يسود الاعتقاد أن الـ «أنيسغي نا»، أو الأرواح الحاقدة، لا يمكنها الثبات أمام تلك الرائحة، لكن خشب السدر ذاته يُعدّ أقدس من أن يستخدم كوقود. في رقصة الحرب، تُشد غنائم فروات الرؤوس على أطواق[2] صغيرة، وكانت تُعلق على شجيرة سدر صغيرة قلمت وزينت للمناسبة. ويأتي اللون الأحمر، حسب ما تروي إحدى الأساطير، من دم ساحر شرير يُعلق رأسه المقطوع في قمة سدرة باسقة. هذي القصة الآن تكاد تُنسى، لكنها على الأرجح تتطابق إلى حد

(1) Asgina تعبير في لغة الشيروكي ويعني «شيطاني»، أو «إبليسي» (م).
(2) من طوق، أو طارة (م).

Twitter: @ketab_n

ما مع قصة ما زالت سائدة في أوساط الـ «يوتشي»، جيران الشيروكي السابقين. وحسب أسطورة الـ «يوتشي» فإن الساحر الشرير أفسد المسار اليومي للشمس حتى قام في النهاية محاربان شجاعان بملاحقته وقتله في داخل كهفه. وقطعا رأسه وأحضراه معهما إلى الديار لعرضه أمام الناس، غير أن الرأس بقي حياً، وللإجهاز عليه نُصحا بتثبيته في غصون الشجرة العليا. فعلا هذا، وقد جربا أشجاراً عدة، واحدة تلو الأخرى، لكن ومع حلول كل صباح كانا يجدان الرأس حياً في أسفل الشجرة. أخيراً قاما بتثبيته بشجرة سدر، وهناك بقي الرأس حتى مات. وإذ سال الدم رويداً من الأعلى على طول الجذع، فقد منح الخشب لونه الأحمر، وغدت السدر منذ ذلك الحين شجرة «سحرية»[1].

اللن[2]، أو الزيزفون الأمريكي (Tilia) هو على الدوام، كما يُعتقد، بمنأى عن ضرب الصواعق، فيسعى الصياد الذي تداهمه واحدة من العواصف المعتادة في الجبال الجنوبية إلى الاحتماء به دائماً. من لحائه الوتري تُجدل أحزمة الصيد التي تُرتدى حول الخصر. وتمثّل الشجرة الحامضة[3] (Oxydendrum) للصيادين

(1) أليرت غاتشيت، «بعض قصص هنود اليوتشي الأسطورية»، في «أميركان أنتروبولوجست»، 6، ص. 281، يوليو، 1893 (المؤلف).

(2) Linn

(3) شجرة حامضة الورق (م).

Twitter: @ketab_n

مصدراً لأعواد الشواء، فيُشوى اللحم عليها فوق النار نظراً لنكهة خشبها الحامضة، النكهة التي يعتقدون بأنها تنتقل إلى اللحم على هذا النحو. وتصنع الملاعق والأمشاط أيضاً من هذا الخشب، لكنها لا تُحرق قطّ نظراً للفكرة القائلة إن محلول القِلْي الذي يصنع من رمادها سيسبب المرض لهؤلاء الذين يستخدمونه خلال إعدادهم طعامهم. كما قيل أيضاً إنه إذا نام أحدهم قرب نار تحوي أعواد الشجرة الحامضة فإنها سوف «تشويه»، مما قد يعني احتمال حلول الحرارة به، أو إصابته بأوجاع الحمى جراء ذلك.

ويستخدم الغار، بكلا نوعيه، الكبير والصغير (Rhododendron و Kalmia، أو «اللبلاب»[1])، في صنع الملاعق والأمشاط نظراً لتقارب أليافه، كما يستخدم في تحضير الدواء، لكنه لا يُحرق البتة للاعتقاد بأن حرقه قد يجلب الطقس البارد، وقد يتسبب فوق ذلك في تدمير المزايا الشفائية لنوعه كله. ما يُقدم من السبب في هذا الأمر هو أن أوراقه حين تُحرق تُصدر صوت هسهسة يُحيل إلى رياح الشتاء وهبوط الثلج. عندما يصنع الطبيب مركباً يشكل الغار، في أي جزء منه، واحداً من مكوناته، فإن الاحتراز يكون عظيماً لتلافي وصول أي من أوراقه أو أغصانه الصغيرة إلى النار، لأن ذلك قد يبطل قيمة المادة

(1) نبات معترش (م).

Twitter: @ketab_n

المستخلصة. ويحرم استخدام الساسَفْراس[1] كوقود في أوساط الشيروكي، كما في أوساط جيرانهم من البيض، وذلك لسبب عملي ربما، إذ أنه ميال إلى الاندفاع خارجاً من النار عندما يسخن ما قد يؤدي إلى إشعال البيت.

ويُلقى لحاء الجوز المسحون في الجداول الصغيرة كي يُخدر الأسماك، مما قد يسهل جرفها بالسلال حين تطفو على سطح الماء. إن خاضت امرأة حامل في الجدول حينذاك، فسيبطل حملها، إلا إذا احتاطت للأمر قبل ذلك وعقدت حول إصبع قدمها رباطاً من اللحاء. ويعتقد أن ناراً موقودة من حطب شجرة بلوط وخشب الـ «تيلون لاتي»، أو كرمة الصيف (Vitis oestivalis)، تجلب موجة من الطقس الحار حتى في فصل شتاء شديد البرودة.

وهناك خواص غامضة تلتصق بخشب الشجرة حين تضربها الصاعقة، خاصة إذا ما بقيت تلك الشجرة على قيد الحياة، ويدخل خشب كهذا، على نحو واسع، في تركيبات العرّافين السرية. ويخشى إنسان عادي من لمسها مخافة أن تحل الشقوق في يديه وقدميه، كما لا يحرق خشبها من أجل الوقود مخافة

(1) شجر أمريكي من فصيلة الغار (م).

Twitter: @ketab_n

أن يتسبب محلول القِلْي المصنوع من رمادها بظهور السل. وفي إعداد لاعبي الكرة لخوض المباريات يقوم رجل السحر أحياناً بحرق كسرات منها لتصير فحماً، ويعطي كسرات الفحم تلك إلى اللاعبين كي يصبغوا وجوههم بها ليصيروا قادرين على مهاجمة منافسيهم بكل قوة الصاعقة. أما لحاء أو خشب شجرة ضربتها الصاعقة، لكنها ظلت خضراء، فيتم طرقه ووضعه في المياه التي تنقع فيها البذور قبل زرعها، وذلك لضمان محصول جيد، لكن، في المقابل، فإن كل خشب ضربته الصاعقة يُلقى في الحقل سوف يؤدي بالمحصول إلى الذبول، كما يُعتقد أن له تأثيراً سيئاً حتى جراء الذهاب إلى الحقل مباشرة بعد التواجد قرب شجرة كهذه.

من بين كل الخُضَر فإن الذي يقع في المرتبة الأولى في الاقتصاد المنزلي وفي الطقوس الاحتفالية للقبيلة هو «سيلو»، «الذرة»، المذكور في الوصفات المقدسة تحت اسم «آغاوي لا»، «المرأة العجوز»، وذلك في تلميح إلى أصله الأسطوري العائد لدم امرأة عجوز قُتلت على يد ابنيها العاصيين. في الأزمنة السالفة كان احتفال صلاة الشكر السنوي برقصة الذرة الخضراء، الممهد لأكل الذرة الجديدة الأولى، يمثل المناسبة القبلية الأكثر قداسة،

Twitter: @ketab_n

فيشمل الاستعطاف والتكفير عن خطايا العام الفائت، والعفو عن المجرمين المعروفين، والصلاة من أجل السعادة والازدهار في العام الآتي. ولم يكن يسمح بالمشاركةف ي الاحتفال إلا لأولئك الذين أعدوا أنفسهم كما ينبغي، من خلال الصلاة والصوم والتطهر، ولا يجرؤ أحد على تذوق الذرة الجديدة قبل حلول موعد الاحتفال المذكور. وكانت توضع على الدوام سبعة أكواز من محصول العام الفائت جانباً بانتباه كي تُجتذب الذرة، وذلك حتى ينضج المحصول الجديد ويحل موعد الرقص، عندئذ تؤكل الأكواز السبعة مع ما يؤكل من الذرة الأخرى. وبتناول أول ذرة جديدة بعد رقصة الذرة الخضراء، كان يتم الانتباه على ألا يُنفخ عليها لتبريدها، مخافة التسبب بعاصفة من الرياح تأتي على المحصول النابت في الحقل.

وقد ترافقت زراعة المحصول والعناية به مع الكثير من الاحتفالات. وكان يوضع سبع حبّات، وهذا عدد مقدس، على كل تلة، ولم يكن يجري حصادها فيما بعد. إثر آخر الأعمال التي تنفذ على المحصول، يذهب الكاهن ومساعد له – صاحب الحقل في العادة – إلى الحقل ويبنيان محبسة صغيرة (ديتسانون لي) في وسطه. ثم يدخلانها، ويقتعدان الأرض وبرأسين محنيين،

Twitter: @ketab_n

وإذ يعتصم المساعد بالصمت التام، يقوم الكاهن، الذي يحمل بيده خُشْخَيْشَة، بإنشاد أغان تتضرع لروح الذرة. بعدها بوقت قصير، وحسب معتقد تقليدي، فسيسمع في الخارج حفيفاً صاخباً حيث سيدرك أنه صادر عن «المرأة العجوز» التي تجلب الذرة إلى الحقل، لكن عليهما ألا ينظرا حتى انتهاء الأغنية. ويتكرر هذا الاحتفال لأربع ليال متعاقبة، ولا يدخل أحدٌ الحقل بعدها لسبع ليال أخرى، وحين يدخل الكاهن إلى الحقل بنفسه، وإن كانت الأصول المقدسة قد روعيت كما ينبغي، فذلك سوف يُكافأ بالعثور على سبعة أكواز على السيقان النابتة. وكانت احتفالات الذرة هذه يمكن أداؤها من قبل صاحب الحقل نفسه بشرط استعداد الأخير دفع مقابل وافٍ إلى الكاهن ليتعلم منه الأغاني والطقوس. دائماً كان يُحرص على أن يبقى الدرب من الحقل إلى البيت نظيفاً، إذ ربما يَحث ذلك الذرة على البقاء في الدار فلا تهيم في أمكنة أخرى. معظم العادات هذه باتت الآن منسية، إلا في أوساط كبار السن الذين ما زال الكثيرون منهم ملتزمين بالدين.

احتفال لافت آخر، حتى ذكراه اليوم تكاد تُنسى، كان يُعقد إثر أولى الأعمال في حقل الذرة، إذ يقف مالك الحقل، أو

Twitter: @ketab_n

الكاهن، عند كل زاوية من زوايا حقله الأربع، بالتوالي، فيبكي وينوح هناك بصوت عال. ويعجز الكهنة أنفسهم الآن عن تفسير سبب هذا الأداء الذي قد يكون رثاء لموت سيلو الدامي، على ما كانت نساء بيبلوس قد اعتدن القيام به ليندبن أدونيس.

إلى جانب الذرة، يعد الفول (تويا) الغذاء الأكثر أهمية عند الشيروكي وعند غيرهم من الهنود الجنوبيين، حيث ينبت في بلادهم على الأرجح، لكن لا يظهر أن هناك احتفالاً مميزاً أو فلكلوراً يرتبط به. وتقوم الأمهات في بعض الأحيان بفرك الفول، الذي تنفتح حبوبه وتنفلق إذ يُطهى، على شفاه أطفالهن وذلك لجعلهم يبدون بشوشين وبطباع حسنة. ويبدو تداعي الأفكار المرتبطة به مطابقاً لما تثيره البطاطا المُغْبرة السمينة في آيرلندا، البطاطا التي تنشق وتُفتح عندما تسلق، فتُدعى البطاطا «الضاحكة». البطيخ والقرع، إذ يكونان في طور نموهما في حقول الكَرْمة، ينبغي ألا يجرى عد نبتهما وألا يُعَايِنان عن قرب، وإلا فسوف يتوقفان عن النمو، كما لا ينبغي من أحد أن يطأ الكرمة، لئلا تذوي قبل إيناع ثمرها. وإن أكل أحد ما تفاحة مايو عليه ألا يقترب من الكرْمة مهما كانت الأسباب، إذ أن هذه النبتة تذوي وتذبل بسرعة كبيرة، كما أن حضورها سوف يُذبل البطيخ على النحو ذاته.

Twitter: @ketab_n

وكان لتبغ يستخدم كبخور مقدس، أو كضامن للقسم المقدس، في كل مناسبة مهمة تقريباً – في شد عزيمة المحارب لامتشاق الفأس في وجه العدو، في إقرار معاهدة السلام، في تأكيد البيع أو المعاملات الأخرى، في طلب الفأل الحسن للصياد، في إبعاد المشعوذين والأرواح الشريرة، وفي الممارسات الطبية الشائعة. وقد كان يُدخن في الغليون أو يجري ذره في النار، ولم يكن يُلف البتة في السكائر كما كان شائعاً في أوساط قبائل الجنوب الغربي، وهو لم يكن يُدخن لمجرد متعة الإحساس. في السنوات الأخيرة قام الجيران البيض بإرشاد الهنود على مضغه، لكن العادة هذه ليست عادة أصيلة. ويدعى التبغ «تسالو»، وهو اسم فقد معناه في لغة الشيروكي غير أنه يُفسر من قبل أنسبائهم الـ «توسكارورا»[1] بحيث يبقى ممكناً تحليل عبارة «تشارهو»، «تبغ»، لتعني «نار تُضبطُ في الفم»، مما يظهر أن استخدامه قديم بقدم معرفة النبات. ولم يكن التبغ المستخدم أساساً في أوساط الشيروكي والإيروكوا والقبائل الشرقية الأخرى هو التبغ التجاري الشائع (Nicotiana tobacco) الذي جاء من الهند الغربية[2]، بل كان (Nicotiana rustica)، أو التبغ البري، الذي يميزه الشيروكي باسم «تسال– أغايون

(1) Tuscarora قبيلة هندية يُطلق على أفرادها أيضاً اسم «جامعي القنب» (م).
(2) West Indies

Twitter: @ketab_n

لي»، «التبغ القديم»، كما يسميه الإيروكوا «التبغ الحقيقي». استخداماته المتعددة في الطقوس والطب تشرح على نحو أفضل في مصنفات أخرى.

اللوبِيْلية الأرجوانية[1] (Lobelia)، وآذان الدب[2] (Verbascum)، وغيرهما نبتة أو نبتتين من الأنواع القريبة منهما، تُسمى «شبيهة التبغ»، نظراً لشبهِها به في المظهر، غير أنها لم تُستخدم قط على النحو الذي استخدم فيه التبغ.

ويتمتع الجزر الأبيض (Peucedanum) السام بسمعة غير طيبة البتة نظراً لاستخدامه المتكرر في الرقى الشريرة، خاصة تلك المعدة لإنزال الخراب في حياة ضحاياها. في واحدة من الرقى المذكورة توضع سبع عينات منه على إحدى اليدين، وتُفرك برِفقٍ باليد الأخرى، فيُؤخذ الفأل من وضعية تلك العينات عندما تُبعد اليد. وقد قيل أيضاً إن من أراد تحضير السم يقوم بمزج هذه النبتة سراً بطعام ضحيته العتيدة، عندها، وإن تناولت الضحية الطعام، سرعان ما يحل بها النعاس، وإن لم تداوم على الحركة حتى زوال تأثير ما أكلته، فإنها تغرق في النوم ولا تستيقظ منه بعد ذلك قط. كما يقال

(1) من نباتات أميركا الشمالية (م).
(2) نوع من النبات (م).

Twitter: @ketab_n

إن المنتحرين يتناولونه لبلوغ الموت. وقبل الشروع في رحلة ما يتم أحياناً مضغ قطعة صغيرة من جذوره فتنفخ الجسم لتقي من المرض، لكن العلاج حينذاك يكاد يوازي المرض في سوئه، إذ يقال إن الأفاعي تُقدم على مواجهة رائحته الكريهة عبر لسع المرء الذي يحمله. وعلى الرغم من خواصه السامة تلك، فإن المادة المستخلصة من غلي جذوره تستخدم كثيراً في تعريض المرضى للبخار كي يستحموا بالعرق، حيث تبدو الفكرة من وراء ذلك أنه برائحته يطرد أرواح المرض.

البلوط السام أو اللبلاب السام (Rhus radicans)، المتوافر بكثافة في الغابات الشرقية الرطبة، يخافه الهنود بمقدار ما يخافه البيض. عندما يُضطرون للاقتراب منه أو للعمل في جواره يجهد الشيروكي لاسترضائه بمناداته «يا صديقي» (هِيْ غينالي). إن مس سمه واحداً من الشيروكي، يقوم بفرك الموضع المسموم بلحم الإرْبِيان[1] المهروس.

أحد أنواع الورد البري (الفُشاغ[2]) يُدعى «دِي نو سكي»، «المُستولِد»[3]، وذلك للاعتقاد أنه لو سُمح لشوكة منه في البقاء

(1) جراد البحر (م).
(2) Smilax هو نبات معترش (م).
(3) نبات يستخدم للاستيلاد (م).

Twitter: @ketab_n

في اللحم الحي فإنها سوف تُوَلد شوكات أخرى خلال يوم واحد أو يومين.

ويدعى الجنسنغ، الذي يباع بكميات كبيرة للتجار المحليين، كما يجري استخدامه في الممارسات الطبية التقليدية، باسم «أتالي– غولي»، «مُتسلق الجبل»، غير أن الكهنة يسمونه «يونوي أوسدي»، «الرجل الصغير»، أو «يونوي أوسدي غا أدا وِيْهِيْ يو»، «الرجل الصغير، الساحر الأكثر قدرة»، وهي عبارة يقدسها الشيروكي كما يقدس الصينيون اسمه في لغتهم، كما أنها مستمدة من التشبيه المتكرر لشكل جذوره بهيأة جسد الرجل. المعتقدات والاحتفالات المتصلة بجمعه وإعداده هي كثيرة جداً. الطبيب على الدوام يذكره ككائن رقيق الحسّ، كما يسود الاعتقاد أنه قادر جعل نفسه غير مرئي أمام أولئك الذين لا يستحقون الحصول عليه. في مهمة صيده، فإن النباتات الثلاث الأولى منه التي يُعثر عليها يتم تجاوزها. وتؤخذ النبتة الرابعة، وبعد إقامة صلاة تمهيدية، يقوم الطبيب خلالها بالتوجه إليه على أنه «أدا وِيْهي» العظيم، ويطلب خاشعاً إذناً بأخذ قطعة صغيرة من لبه. في قلعه من الأرض، يقوم الطبيب بإيداع نقطة دم في الحفرة التي كانت تضمه قبل قلعه ويطمرها، تاركاً إياها في

Twitter: @ketab_n

المكان كي تمثل جزاء لروح النبتة. بعد ذلك يأخذ النباتات كما عثر عليها من دون احتفالات لاحقة.

وتدعى نبتة الوتر، أو شريط حذاء الشيطان (Tephrosia)، «ديستاي بي»، أي «إنها متينة»، وذلك في تلميح إلى جذورها الليفية التي تحضّر نساء الشيروكي منها مادة مستخلصة من الإغلاء كي يغسلن شعرهن بها فيزودنه بقوة النبتة ومتانتها، فيما يَستخدم لاعبو الكرة ما يستخرج من غلي أوراقها كي يغتسلوا به ليمتن أوصالهم[1]. ولكي يتمكنوا من النهوض على أقدامهم سريعاً عن الأرض إذا ما وقعوا، يغسل اللاعبون أطرافهم أيضاً بمستخلص نقيع الأسَل[2] الصغير (Juncus tenuis) والذي يقولون إنه على الدوام يعيد القوة لأقدامهم وأيديهم، مهما كثر إجهادها.

وكانت البذور البيضاء لنبتة بُوْغْلُصُن[3] الأفعى الخبيثة (Echium vulgare) تستخدم فيما مضى في احتفالات مهمة كثيرة، حيث كانت الغاية منها النظر في المستقبل، لكنها الآن استبدلت بالخرز الزجاجي الشائع الذي جاء

(1) الوُصْل: رجل الإنسان أو ذراعه (م).
(2) أو السمار، وهو نبات تُستخدم أوراقه الأسطوانية الطويلة في صنع مقاعد الكراسي الخ (م).
(3) أو لسان الثور (م).

Twitter: @ketab_n

به التجار. واستخدم جذر الحمامة (Leptandra) في رقى الحب، حيث استُمدت بشارته من حركة جذره إذ يُمسك باليد. اللخنيس الاكليلي[1] (Silene Stellata)، المعروف محلياً باسم «معلم الأفعى المُجَلْجَلَة»، يُدعى «غانيداوا سْكِيْ»، «يَفصِلُ نفسه»، إذ يقال إن سيقانه الذابلة تتكسر عند المفاصل، ابتداء من الأعلى. وكما هو الحال عند سكان الجبال البيض، فإن عصير هذه النبتة يُعدّ علاجاً ناجعاً للسعات الأفاعي، حتى إنه يُعتقد أن أخطر الأفاعي المميتة تفرّ من المرء الذي يضع عينة صغيرة من هذا الجذر في فمه.

نباتات الإسْبَرْغَانيون[2] في جميع تنويعاتها، من أسَلَة الصنارة الإسبانية إلى إسْبرغانيون الكَوْكَل[3] وعشبة جيمسون[4]، تم تصنيفها معاً تحت اسم شامل هو «أُوْ نيستيلون إسْتِي»، الذي قد يترجم تلقائياً إلى «الدبِقات»، وذلك نظراً لخاصيتها في الالتصاق السريع بكل جسم قد تمسه، كما يُعتقد أن لها قدرة سحرية على تحسين الذاكرة

(1) المنثور البري (م).
(2) شريط الماء: عشب ماني شريطي الأوراق (م).
(3) عشب ينمو في حقول القمح (م).
(4) Jimsonweed أحد الأعشاب المائية (م).

Twitter: @ketab_n

وفي بلوغ ثبات الشخصية. وما إن يولد طفل جديد، حتى تُجلب نبتة من أحد أنواعها الصغيرة، يفضل أن تكون الـ Lespedeza repens، فتهرس وتوضع عينة منها في زُبدية تحوي ماءً أحضر من شلال، أو من منحدر مائي، يُصدر جريان الماء فيه جلبة مداومة. ثم يقدم ذلك للطفل كي يشربه على مدى أربعة أيام متتالية، بغية جعله سريع التعلم قادراً على استبقاء كل ما يسمعه لمرة واحدة في ذاكرته. جلبة الشلال الذي أخذ منه الماء هي، على ما يُعتقد، صوت «يُوْنْوِي غوناهي تا»، «الرجل الطويل»، أو الإله النهر، الذي يُعلم دروساً قد يستوعبها الطفل، فيما يُبَجل المجرى المائي بذاته لقدرته على التقاط كل شيء يُطرح على سطح مائه. طَقْس يكاد يكون مطابقاً يخصص أحياناً للراشدين، لكن في هذه الحالة فإن ما يُطلب تنفيذه يُعدّ أكثر صعوبة، إذ ثمة محظورات يمتد فرضها على مدى أربعة أيام أو سبعة، وعلى الذهن حينذاك أن يبقى ثابتاً في تركيزه على غاية الطَقْس طوال الفترة المحددة، فيما لو نسي الخاضع للشعيرة المذكورة نفسه، كأن يشت في انفعاله بذلك الوقت، فإن مزاجه سيبقى مشاكساً إلى الأبد، بعدها.

Twitter: @ketab_n

كرمة مزهرة، تُعرف باسم «نُـوْنِيْ يو ستي»، «شبيهة البطاطا»، وهي تنمو في الحقول المحروثة ولها جذر درني يكاد يشبه البطاطا، تستخدم في رقى الصيد. جذرها المسحون، الذي يرشح عصارة حليبية، يُفرك بالتزامن مع صدور ثُغاء الغزال، «أ وِي - أهْيِلي سْكِي»، الذي يُحاكي فيه الصياد ثُغاء الخِشْف، باعتقاد أن أنثى الظبي حين تسمعه سوف تظن أن وليدها يرغب في أن يرضع، وهي حينذاك، سوف تأتي مسرعة. الجذر المعجوني (آدم وحواء، Aplectrum hiemale)، المكون من طبيعة زيتية دبقة، يحمله صياد الغزلان الذي، ما إن يرمي غزالاً، حتى يدس في جرحه قطعة صغيرة من الجذر الممضوغ، متوقعاً، كنتيجة ضرورية، أن يعثر على الدهن النادر للحيوان حين يسلخه. ويُغسل الصغار الذين يبدو عليهم الهزال والضعف بمستخلص من غلي الجذر ذاته وذلك بغية تسمينهم. ويمضغ جذر النبتة النادرة المعروفة باسم «شرك ذبابة الزهرة» (Dionoea)، والذي له خاصية متميزة في التقاط الحشرات التي تحط عليه وهضمها، من قبل صيادي السمك وبصقه على الطُعْم، فلن تنجو منه حينذاك أي سمكة، كما تثبت النبتة المذكورة على شرك السمك للغاية ذاتها.

Twitter: @ketab_n

ويستخدم جذر نبتة تُدعى «أُوْناتْلُنْوي هيتو»، «لها لوالب»، في رقى مُعدة لاستمالة الغرباء نحو أمر ما. يقوم الكاهن «بأخذها إلى الماء»، أي يتلو عليها صلوات محددة فيما يكون واقفاً بمحاذاة جدول دافق، ثم يمضغ قطعة صغيرة منها ويفركها وينفخها على جسد المريض وذراعيه، والذي يُفترض أن يكون على وشك المضي برحلة، أو المشاركة في مجلس، وستكون النتيجة أن كل من يلتقيه أو يستمع إلى كلماته سوف يُسرّ بمزاجه ومظهره، ويميل لتقديم كل عون له في ما يسعى إليه.

Twitter: @ketab_n

ISBN 978-9948-01-510-9